SHAWQI

MASRA' KLIYUBATRAH

2274
.87655
.362
.1946

2274.87655.362.1946
Shawqī
Masra‘ Kliyūbātrah

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

Princeton University Library
32101 074332691

مصرع كليوباترا

تأليف

أحمد شوقي بك

Shawqī, Aḥmad

Maṣraʿ Kliyūbāṭrah

مصرع كليوباترا

أ. ز. أبو شادي
A. Z. Abushady

تأليف

المرحوم أحمد شوقي بك

مطبعة دار الكتب المصرية
١٩٤٦

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إهـــداء

إلى صاحب السمو الملكى الأمير "فاروق"
ولى عهد المملكة المصرية (*)

فاروقُ يا أزكى نبات الوادى
ولمحةَ الآباء والأجداد
ويامناط العهد من «فؤاد»
الى اليد المأمولة الأيادى
أرفع ما قد وَسِع اجتهادى
وَرَدَ الرُّبا وزَنْبَقَ الوِهاد
حوادث قديمة الميلاد
فِضْنَ عن الملوك والقُوّاد
وصِرنَ وحيَ شاعرٍ وشادى
وفتنةَ اليَراع والمِداد
يَعطفَن كلَّ طيّب الفؤاد
تَهُزُّه فجيعة الأمجاد

(*) أهديت إلى جلالته قبل ارتقاء جلالته عرش المملكة المصرية .

65-14
2274
.87655
.362
.1946

وروعة المَقـادر العـوادى
وما خَلَوْن من شعاع هادى
يُبـيِّنُ الغَىَّ من الرشـاد
ومن قصيدٍ مِلْء كل نادى
عَفِّ البيـوت نَزِهِ الأوتاد
تُسـيغه مسامـعُ الـزُّهّـاد
وقَصص مُستَحدث فى الضادِ
يُـؤلِّفُ التمثيـل بالإنشـاد
فى وطنٍ على الفنون غادى
مَسرَحُه كان بلا عِمـاد
والـدُك المُعـانُ بالسَّـداد
أقام رُكنيْه فكان البـادى
فإن تقبّلتَ وذا اعتقادى
جَزَيتَ إخلاصى واحتشادى
لجيـلك النـاهض بالبـلاد

شوقى

تمهيـــد

١ — زمن الرواية : الأيام الأخيرة فى حياة كليوباترا حوالى سنة ٣٠ قبل الميلاد بين وقعة « أكتيوم » البحرية وانتحار كليوباترا .

٢ — مكانها : فى الاسكندرية وأرباضها .

٣ — أشخاصـــها :

(ا) الأشخاص التاريخية :

كليوباترا .

مارك أنطونيوس .

أكتافيوس قيصر .

قيصرون : ابن كليوباترا من يوليوس قيصر .

(ب) الأشخاص الموضوعة :

أنوبيس : الكاهن الأكبر .

زينـون : أمين مكتبة قصر كليوباترا .

حابى ... ديون ... ليسياس } مساعدو زينون .

هيـــلانة : وصيفة كليو باترا وبينها وبين حابى غرام

شرميون : وصيفة أخرى .

أوروس : رومانى فى معية أنطونيوس وهو عبده وتابعه وصفيه .

أولمبوس : طبيب رومانى فى بلاط كليو باترا .

أنشـــو : مضحك الملكة .

غانمـــين : ساقيها .

حـــبرا : عرافها .

أيـاس : شاديها .

أحيـــل : قائد الأسطول المصرى وربان أنطونياد سفينة كليو باترا .

بـــولا : شاعر .

أغا القصر

(ج) النكرات المسرحيـة : جنود وقـوّاد مصريون ورومانيون . راقصات . عزاف .

الفصـــل الأوّل

المنظـــر الأوّل

«فى مكتبة قصر كليوباترا — حابى وديون وليسياس جلوس الى»
«عملهم . يسمع جماعة من العامة خارج القصر ينشدون هذا النشيد»

يومُنا فى أكْتِيُـوما ذكرُه فى الأرض سارْ
إسألوا أسطولَ روما هل أذقناه الدّمار!

* * *

أحرز الأسطولُ نصرا هزّ أعطافَ الدّيار
شرفًا أسطولَ مصرا حُزْتَ غاياتِ الفَخار

* * *

صارتِ الإسكندريهْ هى فى البحر المَنار
ولها تاج البريهْ ولها عرش البحار

* * *

حابى : إسمع الشعبَ (دُيونُ) كيف يُوحون إليه
ملأ الجوَّ هُتافًا بحياتىْ قاتليه
أثّر البهتانُ فيه وانطلى الزور عليه
يا له من ببَّغاء عقله فى أذنيه

ديون :
حابى، سمعتُ كما سمعتَ وراعنى أن الرَّمِيَّة تحتمى بالرامى

هتفوا بمن شرب الطلا فى تاجهم ... وأصار عرشهم فراش غرام
ومشى على تاريخهم مستهزئًا ... ولو استطاع مشى على الأهرام

حابى :

أتذكر يا ديون إذ انطلقنا ... إلى الميناء نلتمس الهواء
وكان البحر كالميت المسجّى ... وكان الليل للميت الرداء

ديون :

نعم وهناك آنسنا سحابا ... وراء الليل جللت السماء
فقلت انظر ديون ترا الجوارى ... يطأن الماء همسًا والفضاء
وأقبلت البوارج بعد حين ... سوائب لا دليل ولا حداء
رجعن رجوع قرصان أصابوا ... من الغزو الهزيمة والبلاء
فلم نسمع لملاح هتافًا ... يبشر بالقدوم ولا نداء
ولم نر فوق سارية سراجا ... ولا من ثقب نافذة ضياء

حابى : فماذا قلت ؟

ديون :

قلت ديون إنى ... أرى الأسطول بالويلات جاء
دخول الظافرين يكون صبحًا ... ولا تزجى مواكبهم مساء
فلما أصبح الصبح انتبهنا ... نرى الأسطول أزين ما تراءى
تبرّجت البوارج بعد عطل ... وهزّت فى ذوائبها اللواء

وردّدَ فى المدينة أن روما عفا أسطولُها ومضى هَباء
فضجّ الناسُ بالبُشْرَى وكدّوا حناجرَهم هُتافاً أو دُعاء
هداك اللهُ من شَعب برىء يُصَرِّفه المُضَلِّلُ كيف شاء

[تدخل هيلانة]

ليسياس [هامسا لحابى] :

حابى : صهٍ قد ظهرتْ هيلانهْ وأقبلت بالطلعة الفتّانهْ
تَنفَحُ كالزَّنبقة الغَيْسانهْ

حابى : ليسياسُ، أنهاك عن المَجانهْ هيلانةُ فى القصر قَهرْمانهْ
لها وقارٌ ولها مكانهْ

هيلانة : سلامٌ لك يا حابى سلامٌ لك هيلانهْ

حابى :

هيلانة : أُمِرْتُ أن أقول للأمين ستحضُر المَلْكةُ بعد حين
فبلِّغ الأَمرَ الى زينون

حابى : سيدتى سأفعلُ أمرُكما ممتثلُ

هيلانة : تَقرِنى بِرَبَّتى ! ذلك ما لا أَقْبَل

حابى : هيلان، أنتِ مَلْكتى وأنتِ وحدَكِ المَلَكْ

هيلانة : بل كيلبترا وحدَها لم يَحْوِ شمسيْن الفَلَك
إن أنت لم تُؤمِنْ بها فلستَ لى ولستُ لك

[تخرج هيلانة و يدخل زينون من باب آخر فى هيئة تفكير واضطراب]

حابى : ذاتُ الجلالة سيدى قد آذنتْنا بالزيارهْ

زينون : هذه حجرتُها لا عدِمَتْ طِيبَ رياّها ولاضوء حُلاها

كلَّ يوم تتجلى ساعةً هاهنا كالشمس فى عز ضحاها

تدخُلُ الدارَ فتنسى مُلكها بلقاء الكُتْب أو تنسى هواها

[محدّثا نفسه فى ركن قصى من أركان المكتبة] :

أما الشبابُ فقد بَعُد ذهب الشباب فلم يَعُدْ

ويحى أمِن بعد السنيـ ـن وقد مرَرن بلا عدد

أو بعد طولِ تجاربى ومكانِ علمى فى البلد

تَجْنى الحسانُ علىّ ما لم تجْنِ قبلُ على أحد؟

ديون [هامسا إلى زميليه] :

حاب ، ليسياس ، أُقسمُ أن زينونَ مغرَمُ

فضح الشيخَ حبُّه والهوى ليس يُكتم

ليسياس : بِمَنِ الشيخُ مولَعٌ ليت شعرى متيّم؟

ديون : وبمن جُنَّ يا تُرى ؟

حابى [ضاحكا] : كلُّ خاف سيُعلم

زينون [مستمرا فى حديث نفسه] :

مالى جننتُ فصرتُ أ تَّـ ـهم الشبابَ وأضطهدْ
لم ألـقَ رأسًـا فاحمـا إلّا حملتُ له الحسـد
ووجدتُ لاعجَ غـيْرةٍ بين الجوانح يتقّـد
فكأن ظلمـةَ شَـعره فى مُقلتىّ هى الرّمـد
وكأنمـا سـرَقت ذوا ئبُـهُ شـبابى المفتقَـد
ولـو آن لى ولداً فمـا ت لمـا بكيتُ على الولد
حذَرًا وخـوفا أن يكو نَ بهـا تعـلّق أو وجَد
شـكٌّ يعـذّب مهجتى إن المشكّكَ فى كَبَد ✗

[يلتفت إلى حابى و يطيل إليه النظر ثم يناديه] :

حابى، بـنى

[يأتى اليه حابى]

قل ولا تُخْفِ علىّ هـل تُحبْ؟

حابى : أُحبُّ ! من قال ؟

زينون : سمعتُ

حابى : من روى لك الكذب؟

زينون : بُـنىّ، ليسَ بالفـتى إذا أحبَّ من عَجب
مَن لم يُحبَّ لم يُؤ دِّ للشـباب ما وجب ✗

حابى [متهمكا] :

لكن أأدّعى الهـوى وليس لى منـهُ سببْ؟

زينون : حابى ، بُنىّ لا تَـرُغْ مِنَ السـؤال بل أَجِب

لولا الهـوى لم تَكُ فى ظـل الشـباب تكتئب

ما بال بِشْـرِك امّحَـى ولـونك الغضّ شُحِب؟

وللدمـوع من مآ قيـك تكادُ تنسكب؟

حابى [ساخرا] :

افقْ زينونُ واصحُ من الغوانى أبعد الشيب تخدعُك النساء؟

زينون [غاضبا] :

أتعـلم يا غلامُ علىّ عشقًا ؟

حابى : دع الإنكار قد برح الخفاء

زينون : ومن أنباك ؟

حابى : أنت !

زينون : وكيف ؟

حابى : تَهْـذِى فتفضحك الوساوسُ والهُذَاء

كمحموم يبوح وليس يدرى تكشّفَ عن سرائره الغطاء

أبعد العطف والإشفاق يشقى بصحبتك الشبابُ الأبرياء؟
فكلّ فتى رأيتَ زعمت صباً يُخامرُه من الرَّقطاء داء؟
وما كعمَى الشيوخ إذا أحبُّوا وليس وراء غَيْرتهم بلاء

زينون [لنفسه] :

إلهى قدفُضِحتُ وضَلَّ شيبى وضاعت حكمتى وخبا الذكاء

[لحابى] :

صدقتَ بُنىّ بى داءٌ دخيلٌ وليس إلى الدواء لِىَ اهتداء
علىّ تلوّت الأفعى، فهلْ لى من الأفعى ونَكْزتها نَجَاء؟
أرى ولهَا وأحسبُهُ جنوناً كسانيه على الكِبَرِ القضاء

حابى : وتُعطَى حين تَلقاها ابتساماً وأنطنيوسُ يُعْطَى ما يشاء
صباحُهما مُغازلةٌ وصيدٌ وللأقداح والقُبَل المساء
أتَرْضى ان يكون سريرُ مصرٍ قوائمُهُ الدعارةُ والبِغَاء؟
أتهدِمُ أمةً لتشيدَ فرداً على أنقاضها؟ بئس البِناء!

أبى، شيخى، اجترأتُ عليكَ فاصفحْ
فلم أكُ أجترى لولا الوفاء

إلهى قد فضحت وضل شيبى وضاعت حكمتى وخبا الذكاء

(صفحة ١٣)

لقد آن التكاشفُ والتواصي ... بما توحى الكرامةُ والإباء
تعالَ إلى جماعتنا، فإنّا ... جنود الحق يجمعنا لواء
شبابَ نحن يعوزُنا شيوخ ... بهم فى المدلهمّةِ يُستضاء
زينون : كفى، إنى نفضتُ يدى منها ... ومُزِّق عن بصيرتى الغشاء
حابى : أبى زينونُ قد بُحتُ ... من السر بمكنونى
وما غيرُك زينونُ ... على السر بمأمون

[يشير إلى ديون وليسياس] :

أنى، هذا أثيني ... وخلِّى ذاك مَقْدونى
كلا الخلّين للحق ... كما أدْعوه يدعونى
كلا الخلّين ذو جدٍّ ... بأرض النيل مدفون
فليسا فى هوى مصرٍ ... وفى طاعتها دونى
فدينا الوطنَ الغالـ ... ـى بالجنس وبالدين
ولم نصبر على حكم ... لروميّةَ ملعون
ولسنا حزبَ أكتافٍ ... ولسنا حزب أنطون
ولا نَخْضَعُ للبأس ... ولا نُخْدع باللين
ولم يبقَ على الودِّ ... لروما غيرُ زينون

زينون : معاذ الله ، عُدُّونى من العصبة عُدُّونى
كساك اللهُ يا روما لباسَ الذلّ والهُون

حابى : أبى ، أنت الطبيبُ وكلُّ داء له فى صَيْدليّتك الدواء
فَهِىَّ لها ابنَ ساعته وعجّلْ يُعَجَّلْ فى السماء لك الجَزاء
لعل سمومَك الزُّعْفَ المواضى من الأفعى وفتنتها شفاء

[يدخل جندى من حرس الملكة معلنا قدومها]

الحارس : الملكة !

زينون [كأنما يفيق من حلم] :

الملكهْ ! لَا بَرِحَتْ مُلَيَّكهْ !
ودام مجدُ المملكهْ !

[تدخل كليوباترا ومن ورائها ابنها قيصرون بين وصيفتيها شرميون وهيلانة ومن ورائهن أنشو مضحك الملكة وأغا القصر]

الملكة : تحيَّتى لأُمناء المكتبه وشيخهم أعلى الشيوخ مرتبه

زينون : سلام السَّموات فى مجدها على رَبَّة التاج ذات الجلالْ

تمنيتُ رأسين لا واحداً إذا مَسَّت الأرضَ هامُ الرجالْ

أُطأطئُ رأسًا لمجد النبوغ وأخْفضُ رأسًا لمجد الجمال

حابى . ديون . لسياس [يتلفت بعضهم إلى بعض أسفا] :

أنشـو [للوصيفتين وقيصرون] :

أما يُغنيهِ عن رأسيـ ـنِ رأسٌ فيـه وجهان؟
فحينًا هـو مصرىٌّ وحينًا هـو يُونَانى
وفى مجلسِ يوليوسَ وأنطونيوس رُومانى
وإن لاقى أغا القصر فنـوبىٌّ وسـودانى

[يدخل الكاهن أنوبيس من باب مقابل]

الملكة : كاهنَ المُلْكِ سـلامٌ لا عَدِمنا بركاتِكْ
صلِّ من أجلى ولا تنـ ـسَ صِغارى فى صلاتك

أنوبيس : رَبَّةَ النيـل التَّحيـا تُ الزَّكيَّاتُ لذاتِك
حَرَسَتْ تاجَكِ إيزيـ ـسُ ومَدَّتْ فى حياتك

الملكة : هُوَ ذا ابنى قيصرونُ يَتـلـقّى نفـحاتِـك

الكاهن [لنفسه] :

إيزيسُ كيف أُصَلى على ابن يوليوسَ قيصرْ؟
أبوه عالٍ ولكنْ فرعـوْنُ أعلى وأكبر

[يسمع هتاف من خارج القصر وجماعة ترتل نشيد النصر السالف فى أكتيوم]

الملكة [عابسة] :

كاهنَ المُلْكِ ، سادتى ، هل سمعتمْ رَنَّةَ الصوتِ فى جوانب قصرى؟

أنوبيس : هم رعايا مليكتى
الملكة : ليت شعرى
أالخير تجمعوا أم لشر؟

شرميون :
الجماهير يا مليكة بالشـ ـط يموجون فى حبور وبشر
سرهم ما لقيت فى أكتيوم من ظهور على العدو ونصر
لا يقولون أو يعيدون إلا نبأ بات فى المدينة يسرى

الملكة :
يا لإفك الرجال! ماذا أذاعوا كذب ما رووا صراح لعمرى
أى نصر لقيت حتى أقاموا ألسن الناس فى مديحى وشكرى؟
ظفر فى فم الأمانى حلو ليت منه لنا قلامة ظفر
وغدا يعلم الحقيقة قومى ليس شىء على الشعوب بسر

شرميون :
ربة التاج ذلك الصنع صنعى أنا وحدى وذلك المكر مكرى
كثرت أمس فى الإياب الأقاويـ ـل وظن الظنون من ليس يدرى
فأذعت الذى أذعت عن النصـ ـر وأسمعت كل كوخ وقصر
خفت فى خاطرى عليك الجماهيـ ـر وأشفقت من عدى لك كثر
فاغفرى جرأتى، فيارب ذنب يتعب العذر فيه مهدت عذرى

الملكة :

شرميونُ، آهدَئى فما أنت إلا ... مَلَكٌ صِيغ من حنانٍ وبِرّ
أنتِ لى خادمٌ ولكن كأنا ... فى المُلِمّاتِ أهلُ قربى وصهر
إنما الخادمُ الوفىُّ من الأهـ ... ـل وأدنى فى حال عسرٍ ويسر
إسمعى الآن كيف كان بَلائى ... وانظرى كيف فى الشدائد صبرى
أيها السادةُ اسمعوا خبرَ الحر ... ب وأمرَ القتال فيها وأمرى
واقتحامى العُبابَ والبحرُ يطغى ... والجَوارى به على الدَّمِ تجرى
بين أنطونيو وأكتافَ يومٌ ... عبقرىٌّ يسيرُ فى كل عصر
أخذتْ فيه كلُّ ذاتِ شِراع ... أُهْبةَ الحرب واستعدّتْ لشرّ
لا ترى فى المجال غيرَ سُبُوحٍ ... مُقبلٍ مدبرٍ مكرٍّ مفرّ
وترى الفُلك فى مُطاردة الفُلـ ... ـك كنسرٍ أراد شراً بنسر
وتخال الدُّخانَ فى جَنَباتِ الـ ... ـجوّ جُنحاً من ظلمة الليل يسرى
ودَوِىَّ الرياح فى كل لُجّ ... هزجَ الرَّعْدِ أو صياحَ الهِزَبْر
وترى الماء، منه عودُ سرير ... لغريقٍ، ومنهُ أحْناءُ قبر
يغسِلُ الجُرحَ شرَّ مَن غسَل الجر ... حَ ويأسو من الحياة ويُبرى
كنت فى مركبى وبين جنودى ... أزِنُ الحربَ والأمور بفكرى
قلت روما تصدّعت فترا شَطـ ... ـرًا من القوم فى عداوة شطر

بَطَلاها تقاسَما الفُلكَ والجيـ ... ـشَ وشبَّا الوغى بحر وبر
وإذا فرّقَ الرُّعاةَ اختلافٌ ... علّموا هاربَ الذئاب التَّجرّى

فتأملتُ حالتى مَليّا ... وتدبرت أمرَ صَحوى وسكرى
وتبيّنتُ أن روما إذا زا ... لت عن البحر لم يَسُد فيه غيرى
كنت فى عاصف، سللتُ شراعى ... منه فانسلّت البوارجُ إثرى
خلَصت من رَحى القتال ومِمّا ... يلحق السُّفْن من دمار وأسْر
فنسيتُ الهوى ونُصرة أنطو ... نيوسَ حتى غدرتُه شرَّ غدر
علمَ الله قد خذلتُ حبيبى ... وأبا صبيتى وعَونى وذُخرى
والذى ضيّع العروشَ وضحّى ... فى سبيلى بألف قُطْر وقطر
موقفٌ يُعجب العلا كنتُ فيه ... بنتَ مصر وكنتُ مَلكةَ مصر

[ملتفتة الى زينون] :

زينونُ، فصّلتُ الخبرْ ... عن القتال والسفرْ
وقلتُ عن إيابى ... وخُطة انسحابى
ما ليس يعلمُ البلدْ ... ولا درى به أحدْ
فهل لديك الآنا ... ما يَجلِبُ السُّلوانا
من الأمالى المُسْليهْ ... والصُّحُف المُلهيهْ

زينون : عنـــدىَ يا مولاتى روائـــعُ الآيَات
تِسْعون ألف سِـفْرِ قـد كُتبتْ بالتّبر
من كل رَقٍّ عجبِ فى العلم أو فى الأدبِ
قيصرُ أنطونيو وهب لنـا مناجمَ الذهبْ
وكلَّ غال مدَّخرْ من الجواهر الأُخَرْ
أسـلابه من حربه وطَعنـهِ وضـرْبه
هديةٌ من قيصر لبَـلدة الإسكندر

أنشو : إذا كانت الكتْبُ فى شرعكم نظيرَ الجواهر كُفْءَ النُّضارْ
فإنى الغـنىُّ بدُرِ الفـواقـ ـع حين يُرضعُ تِـبر العُقـار
وما الكتْبُ قوتى ولا منزلى فما أنا سـوسٌ ولا أنا فار

الملكة : حكيمٌ لعمرى على جهله نظريفُ الحديث لطيفُ الحوار

زينون [مغيظا] :
ولكنها حكمـةُ السائمـات وفلسـفةٌ غـيرُ بنت اختبار
وكلتاهما لا تعَـدَّى الشعورَ بحُبّ البقـاء وخوف الدمار

أنشو : رويدك مولاىَ بعضَ السّباب فليس السّبابُ سبيلَ الكبار

هَبِ الليـلَ طـال فقطّعتـه بِدَرْسٍ وأصبحتَ تُفنى النهار
وأقبلتَ بالكتب تطوى الطِّوالَ وتَنشـرُ فى إثرِهنَّ القِصـار
وزِدْتَ على الأرض علمَ السماء كبارَ كواكبهـا والصغار
! إذا ما نَفقتَ ومات الحمَارُ أبينـك فـرقٌ و بين الحمـار؟

ڤينون [غاضبا] :

ما ذا تقول السـيده؟

الملكة [ضاحكة] : واحـدةٌ بواحـده
أبى أنُو بيُس، أرجو

أنو بيس : بـل تَأمُرينَ مُطاعـهْ

الملكة [مشيرة إلى باب محراب مفتوح ومتجهه إليه] :

هـذا مُقـامُ صلاتى وهيـكلى للضـراعهْ
ولى خطايا كثيرةٌ لا تَـبرَحُ البـالَ ساعه
فادخلْ وصـلِّ لأجلى فمنـك تُرجَى الشَّفاعهْ

[يدخلان المحراب و يتبعهم الحاضرون ما عدا حابى وديون وليسياس]

ديون [متهكما] :

إسكندريةُ صرتَ رَفرَفَ معبد من كلِّ ناحيـة عليـه سِـتارُ

اختَصَّ آلهـةُ الجـلال بِسرّه ... وتفرَّدَ الكُهّان والأحْبار
ما خَطْبُهم حابى ، وماذا بَيَّتوا ... ما هــذه الألغـاز والأسرار ؟

ليسياس :

حابى :

أرأيتَ وقعةَ اكتيوم وما جرى ... فيهـا وكيف تصرّفَ المقدار!
ليسياس ، إنك قد سمعت حديثَها ... كالسحر فى الآذان حين يُدار
تبدو الخيانةُ فيـه وهى أمانةٌ ... ويُرى الثباتُ عليه وهو فرار
وعلمت كيف نجت وكيف انفض عن ... أنطونيُو أسطولُهـا الغـدّار

ليسياس :

واليوم حابى ، أيْن أنطونيو وما ... فعلت بفَلّ جيوشه الأقـدار؟
قل لى : أحىٌّ فى البلاد مشَرَّدٌ ... هـو أم له قــبرٌ بمصر يُزار؟

حابى :

ليسياس ، تسألنى تجاهل عارف

ليسياس :

حابى :

بل جاهـلٍ لم تأتهِ الأخبـار
لم تأت حـتى جاء فى آثارها ... للحبِّ أجنحةٌ بهن يُطار
ويقال بل أخذته تحت شراعها ... ونجـا به فُـلْك لهـا مِحصـار
تجرى الرياحُ بمـا تشاءُ قلوعُه ... ويسـيرُ فى طاعاته التيـار

ويُقالُ غَضبانُ عليها عاتبٌ ... ويُقالُ بل حَنِقُ الفؤادِ مُثار
وعلى صفاء العاشقينِ سحابة ... وعلى سلامِ الصاحبينِ غُبار
آنَى وأقسم لا يُرى فى قصرها ... حتى يُقَوَّمَ مجدُه المنْهار
إن البلاء أجلُّ من ألّا يُرَى ... عجبٌ أتخفَى فى الهشيم النار؟

ديون :

حابى :

أنطونيو منا بأقرب تُكنةٍ ... يدعو من الرومان من يختار
ويُعِدُّ أُهبتَه ليوم حاسم ... فى البر يُغسلُ عنه فيه العار
ويكون ميدانَ الرحى ومدارَها ... تلك التلالُ وهذه الأسوار
فهناك خاتمةُ الصِّراع وموقف ... إما الدَّمارُ به وإما الغار

[يسمع صوت أنو بيس من داخل المحراب مرتلا هذا النشيد] :

إيزيسُ ذاتَ الحجابْ ... مالكةَ العالمينْ
شعبُك لاقَى العذاب ... من عبث الظالمينْ

* * *

يا من خفضنا الجباه ... لعزِّها ساجدينْ
صُغنا إليك الصلاهْ ... من أدمعِ النادمينْ

[ستار]

المنظـــر الثـانى

«فى إحدى غرف القصر الملكى ورحى الحرب دائرة بين اكتافيوس وأنطنيوس على أســوار الإسكندرية — حابى فى الغرفة حيث تدخل عليــه هيلانة»

هيلانة : أتدْخـلُ حابى مَقاصِيرَها؟ بلغتَ من الجُرْأَةِ المنتهَى
ســتعلَمُ أَمرَكَ ذَاتُ الجلالـ ـة

حـابى : بـل أمرتْ أن ترانى هنـا

هيلانة : عجبـت لهـا ولتـدبـيرها كذلك قــد أمـرَتنى أنا
إذن هى تجمعنـا يا جَحُـودُ وتَجـزيكَ عن سَخَطٍ بالرضى

حـابى : هـلانةُ خَليّكِ من ذكرِها حديثُ الأفاعى طويل المدَى

هيلانة : رُوَيدَك حابى لقد أَحسنَتْ فمالى أراك أَسأْتَ الجزَا؟

حـابى : هـلانةُ، يا طيبَهـا خَـلْوَةً وإن قَـلَّ فى ظلّها المُلتقَى
تَعـالَىْ هلانةُ نُعطِ الغـرامَ عِنانَ الحديث ونَشْكُ الجَوَى
أبـلى يـدىَّ يَدَيْكِ اللّتـيْنِ نعيـمى بينهـما والشـقا
هَلُمَّ هِـلانةُ

هيلانة : حابى أَراكَ بِكُنهِ الأمورِ قليـلَ الهُدَى
من القصر لا تَلتمِسْ خَلْوَةً وإن هو من كلّ حسّ خلا

سماء القصور لها أذنان وأرضُ القصور بعينٍ ترى

حابى : هلانةُ لا تقطعى نشوتى بقربك أو حلمى باللقا

أمهما تخيلتُ صفوَ الحياة خلقتِ على جانبيه القذى؟

هيلانة : حنانَكَ حابىَّ لا تتهمْ ولا ترمنى بعقوق الهوى

ولُذْ بالأناة فإن الأناةَ صديقُ الصوابِ عدوُّ الخطا

فلو كنت وحدكَ شغلَ الفؤاد لهان البلاء وقلَّ العنا

ولكنْ حقوقُ كلوباطرة

حابى : وأى حقوقٍ لها تُدَّعى

[تدخل كليوباترة]

كليوباترا : حقوقُ الولايةِ ياذا الغلامِ حقوقُ الرعايةِ يا ذا الفتى

وصبرى عليكَ لأجل الفتاة

حابى [مأخوذا] : إلهى لقد سمعت ما جرى

الملكة : وسدِّى المسامعَ حبًّا بها وأنت تعينُ علىَّ العدا

وترسلُ فى العرشِ هجرَ الكلام وتغشى الحفيظةَ لى والقلى

ولكنْ لنفسِ الذى قد مضى فمثلُكَ تاب ومثلى عفا

دع الذَّوْدَ عن مِصرَ لى إننى ... أنا السيفُ والآخرون العصا
ولا تُطِع الفِتْيَةَ العابثين ... أُسُودَ الكلام نَعامَ الوَغى
[إلى أنوبيس] [يدخل أنوبيس]
أبى : قد أتيت
أنوبيس : سلامٌ عليكِ ... شُعاعَ المدائنِ نورَ القرى
الملكة : أبى قد تَلاقَى هنا العاشقان ... وكان بتدبيرى الملتقى
فباركْ فتاتى وباركْ فتاكَ ... وكفكفْ هواه إذا ما غلا
أنوبيس : حياتك حابى كنيسيَّةٌ ... يشاكلُ أوَّلُها المنتهى
مقيَّدة باليقين القنوعِ ... وما أَمَرَ القلبُ أو ما نهى
الملكة : كزَهرِ المقاصير لم ينتفعْ ... بطولِ الأديم وعُرضِ الثرى
أنوبيس : وتحسبُ فى الكتب علم الحياة ... وما منهُ فى الكتب الأشدَا
حابى : لعلّى كذى الشك فى حرصهِ ... يَقيسُ الطريقَ ويُحصى الخُطا
أَرى راكبَ الشك ملءَ المجال ... طويل العِنان بعيد المدى
ولو شكّكتْ فى السراج الفَراشُ ... لكان سلاماً عليها السّنا
أنوبيس : ولكن تَمُرُّ على ما تراه ... تُجاوزُه نحو ما لا يُرى
وهذا الملاكُ
[مشيرا إلى هيلانة]

كمولاته طليق الإرادة حُرُّ الحجى
تمشّى على جنبات الحياة كما يتمشى شُعاع الضُّحى
يخوض الوحولَ ويغشى الحُلّى ويأوى الحضيضَ ويعلو الذُّرا
ويخترقُ العرصاتِ الفساحَ وينفُذ من ضيّقات الكُوَى
ويرتعُ بين أنوف الأسودِ ويلعب بين عيون الظّبا
الملكة : ولكنهُ طاهرٌ حيث طافَ نقيُّ الذُّيول عفيف الخُطا
أبى قد نسينا حديث القتال فمنذ الصباح تدورُ الرحى
وجيش الحليف وجيش العدوّ بظهر المدينة رهنُ الوغى
هنالك يُقضى مصيرُ البلاد فإما البقاءُ وإما الفنا
ومن عجب كاد يمضى النهارُ وما من رسولٍ ولا من نبا

[يدخل جندى من جنود أنطونيو منهوكا يعلوه الغبار]

الجندى : سيدتى جئتُك بالأخبار لقد جرت بسعدك الجوارى
انتصرت جنودُنا الضّوارى تحت لواء البطل المِغْوَار

قيصرُ أنطونيو على آثارى

الملكة : يا فرحَا ما أعظمَ البِشاره! حلّتْ على أُكتافيو الخسارهْ
«وأكتيومُ» قد أخذنا ثاره خُذْ يا رسولُ هذه البُشارهْ

[تمنحه بدرّة من الذهب فيخرج من باب وتدخل شرميون من باب]

شرميون : سيدتى يا طرباَ ! سيدتى يا فرحَا !
دارتْ على أكتافيُو وجيش أكتافيُو الرَّحى

هيلانة : مَلْكَتى هل تسمعين

[يسمع صوت بوق وهتاف من بعيد]

الملكة [منصتة] : صوت بوق وهتاف

[تقوم الملكة إلى النافذة وترهف أذنيها وعينيها] :

هو واللهِ نشيدى والمُغنُّون جنودى
والمخاريقُ التى تخـ ـفقُ من بُعْدٍ بنُودى
ولديْها فارسٌ مُلـ ـتئمٌ شاكى الحديد
يتراءَى فى عِنان الـ ـجوِّ كالبُرْج المَشيد
هو أنطنيوسُ ذُخْرى وطَريفى وتَليدى

[إلى شرميون وهيلانة] :

أيها البِنتان هذى ليلةُ العيدِ السعيدِ
صَلِّيا مثلَ صَلاتى واسجُدا مثلَ سُجودى

[يسجد الثلاثة لحظة . ثم تنهض الملكة أولا وتتجه نحو النافذة] :

هو ذا أنطونيو من جانب الميناء أقْبَلْ
هيكلٌ يحمِلُه من صافناتِ الخيل هيكل

الـــرِّداءُ الأرْجُوانىُّ على عِطفيْـه مُسـبل
مَبسمٌ يضحكُ من تحـ ـت جبين يتهـلَّل
هـــو ذا يدنـــو

شرميون : أتى والـــلهِ

هيـلانة : مـــولاتى تـــرجَّـــل

الملكة [تبتدر الباب] :

أيُّهـا البنتان هـــذى ليـــلةُ العيـــدِ الســـعيدِ

أنوبيس [هامسا لحابى] :

حابى، أحيط القصرُ بالذئاب وبى من السُّخط عليهم مابى

[للملكة] :

سيدتى تأذنُ فى انسحابى؟ وتأذنـين مَلْكتى لحـابى

الملكة [ضاحكة] :

إلى الأفاعى ؟

أنوبيس : لا إلى المحراب

الملكة : رَأيَـكما فى المُكْث والذهاب

[يخرجان ويدخل أنطونيو وحاشيته وقواده وتابعه أوروس . أنطونيو يقبل على الملكة مادا يديه]

أنطونيو : إلهَتى !

الملكة : قيصرى !

أنطونيو : سلطانتى !

الملكة : مَلكى !

أنطونيو : عندى لكِ اليومَ يادُنيايَ أَخبارُ

الملكة : عَجِّلْ فديتُكَ

أنطونيو : لا، لا بـدَّ من ثمنٍ .

الملكة : كرائمُ المـال؟

أنطونيو : ما للمـال مقدارُ

[يمدّ إليها جبينه فى ضراعة] :

رُدِّى على هامتى الغارَ الذى سُلبتْ فقُبلةٌ منك تعلوها هى الغارُ

[تقبله]

كليو باترا :

اليومَ تعلم رُوما أَن ضَرَّتها تُقلِّدُ الغارَ مَن تهوَى وتختار

واليومَ تعلمُ روما أَن فارسَها جيشٌ بمفردِهِ فى الرَّوْع جرّار

أَنطونيو سيدى، هل نحن فى حُلُم؟ أسالمَ أَنت ؟ لا أَسرٌ ولا عار؟

أنطونيو :

أَسرٌ؟ وَهمتِ كليو باترا، أتظفرُبى أَيدى الكُماةِ وفى كفىّ أَظفار

لو قلتُ قتلٌ لكان القولُ أشبهَ بى ... كأسُ المنايا على الأبطال دوّار

الحربُ تعلمُ والأيامُ تشهدُ لى ... أنى شديدٌ على الأقران جبّار

لو كنتِ شاهدتنى والحربُ جارفةٌ ... والصفُّ تحتى بعد الصفِّ ينهار

قد جُنَّ تحتى جوادى فهو عاصفةٌ ... وجُنَّ نصلى بكفى فهو إعصار

رأيتِ حملة صدقٍ غيرَ كاذبةٍ ... لا السَّيْلُ يحملُها يوماً ولا النار

لما صدمتُ جناحيهم وقلبهم ... عن الخيام ومن أوكارهم طاروا

وما وجدتُ لأكتافى وقادتهِ ... ريحاً ، ولم أتبيّنْ أيةً ساروا

ومالتِ الشمسُ أوكادتْ فراجعنى ... شوقٌ إليكِ قديمُ الداء سوّار

حتى رجعتُ ولو أنى طردتُهم ... لبات أكتافُ عندى وانقضى الثار

كليو باترا :

تركتَهم لغدٍ ! هذى مجازفةٌ ... غدٌ غيوبٌ وأسرارٌ وأقدار

[مخاطبة أوروس] :

أوروسُ ، أنت بفنّ الـ ... ـقتال أعلمُ منّى

الحربُ فنُّك أورو ... سُ والسياسةُ فنى

إن كان « مرْكُ » إلها ... فأنت فى الحرب جنى

فكُنْ بحقِّك عونى ... وقلْ لقيصر عنى

ردّى على هامتى الغار الذى سلبت فقبلة منك تعلوها هى الغار

(صفحة ٣١)

إن المنى لم تُقصّرْ بل قَصّرَ المتمنى

فلو صَبرتم قليلا وسرتمُ فى تأنى
أرحتُمونى وروما من الخصام المُعنّى

أوروس : سيدتى لم تقصدى لما عذلتِ سيدى
عَجّلتِ فى الحُكم على ما لم ترَىْ وتَشهدى
لقد حَملنا حملة كمثلها لم يُعهَد
استنفذتْ بأسَ القنا وقُوّةَ المُهنّد
فكان لابد لنا نُرجى القتالَ للغد

أنطونيو : كليوباترا دعينا من تَجَنّيك كليوباترا
أتبكين على الصبر وقوم حُرموا الصبرا ؟
وبى من صبرك الواهى جِراحُ الأمس لم تَبرا
لقد مَنّيتُ أسطولى لدى أسطولك النصرا
حَليف كنت أرجو أن سأشتدُّ به أَزْرا
فَعبًّا تحت أعلامِ ـك حتى زَحما البحرا
وقد كانا الجناحين وقد كنتُ أنا النَّسرا
وأجرَى الفُلْكَ أكتافيو فأجريتُ كما أجرى
صَففْناها وأرسلنا بها تقتحِمُ الجمرا

كِلانا مارَسَ الحربَ وعانى الكَرَّ والفَرّا
فلما آذنتْنا الحـ ـربُ بالمعركة الكبرى
تَسَلَّلْتِ بأسطو ـلك من غمرتها الحرّى
فقلتُ انسحبتْ ضعفًا وقال الناسُ بل غدرا
ولو كان لهم قلب كقلبي التمسوا العذرا

كليوباترا: أنطونيوسُ مَلكي أنطونيوسُ سيّدى
ليس العُبوسُ سُنَّةً لوجهك الطَّلْق النّدى
ولستَ من يغضبُ فى ليل الشّراب والدَّدد
ولستَ للكأس على شاربها بالمُفسد
قلبُك كنزُ الحب والـ ـرحمةِ والتودُّد ✗
وكم حَقَدتَ ثم أصـ ـبحتَ كأن لم تحقد ✗
ألستَ بالأمسِ وأمـ ـسِ لفتة لم تبعُد
وَهبتَ لى جريرتى والصفحُ نصفُ السُّؤدد
فاطوِ معى حوادثَ الـ ـأمس ولا تُجدِّد
وامضِ معى فى لَذّةِ الـ ـيوم ودَعْ هَمَّ الغد

أنطونيو: كليوباترا بحبيبك من التأنيب خَلِّينا
لقد سُقتُ وقُوّادى إليك النصر فاجزينا

مُرى بالكاسِ والطاسِ وبالنَّدمانِ يَسقينا
وبالقَصفِ وبالعزفِ وحُذَّاقِ المُغنّينا
وما طُيِّب ألوانًا وما طاب رياحينا
وقولى الشعرَ عُلْويًا كما كنتِ تقولينا
وأوحيه إلى شاديـ ـك يُلقيه فيُشجينا
غدًا نستأنفُ الحربَ ونَطويها ميادينا

انشو : ونَغشاها مَخامير ونلقاها مجانينا

كليوباترا : مُرْ بما شئتَ قيصرُ وأَشِرْ كيف تأمرُ
لكَ قصرى وما حوى القـ ـقصرُ كُلٌّ مُسخَّر
ليس شيءٌ وإن غلا عن حبيبٍ يُؤخّر
لَتكونَنَّ ليلةً آخرَ الدهرِ تُذكَر
لا نُبالى إذا صَفتْ بعدها ما يُكدِّر
تَحلُمُ الحُلْمَ لستَ تَدـ ـرى بماذا يُفسَّر

[لوصفائها ووصيفاتها] :

البِدارَ البِدارَ يا وُصفائى ووصيفاتَى البِدارَ البِدارا
قيصرٌ قيصرٌ هو الآمرُ النا هى على القصرِ فليكنْ ما أشارا
هو يبغى وليمةً فاصنعوها وانسقوها كما اشتهى واختارا

أَطلِعوا هـذه الشموعَ شُموسًا تَـذَرُ الليـلَ بالعَشِيِّ نهـارا
وأعِدّوا الخوانَ قد خُمِّل الأل ـوان شَـتَّى وجُلِّلَ الأزهـارا
واجمعوا بالمُدام شَمْلَ النَّـدامَى وأديروا الكؤوسَ والأوتارا
واجعـلوها وليمـة وبِسـاطًا يتبـارى خلاعـةً ووَقارا
مصرُ إن أُولِمتْ سَمتْ بالأغانى درجات وأسمت الأشـعارا
لا تَسـيروا عـلى ولائم روما سَرَفًا فى الفُسـوق واستهتارا
كلما أولمتْ أساءتْ إلى العقـ ـل وجَرَّتْ على الحضارة عارا
ولقـد تجعـلُ النِّمـارَ نَداما ها وأسْـد العَرينـةِ السُّمّارا

قائد رومانى [لزميله غاضبا] :

أتسمعُ ما تقـول عَدوُّ روما؟ قـد اجترأَتْ على روما البَغِيُّ
أَتحـت لـوائهـا وبجانبيْهـا يخوضُ الحربَ مِن روما كَمِيُّ؟

الآخـر :

غـدًا تَلقى وإن غـدًا قريبٌ عقـابًا فى البـلاد له دَوِيّ

الأول [لأنطونيوس فى عتب وغضب] :

أَميرىَ أَنطونيو أَفى الحق أَننا نَبيتُ سُـكارَى والعدو مُبيِّتُ؟

[ينظر اليه أنطونيو نظرة طويلة ثم ينصرف عنه إلى كليوباترا فيهمس القائد] :

أَلا إنه ليـلٌ له ما وراءَه غرامُك حتى فيه والمجدُ ميِّت

الفصل الثانى

«فى حجرة الولائم بالقصر الملكى ، حيث ترى كليوباترا ووصيفتاها هيلانة»
«وشرميون ، وأنطنيوس ، وأوروس ، وبضعة من القوّاد الرومان ، وأولمبوس»
«طبيب الملكة ، وأنشو مضحكها ، وغانميز ساقيها ، وحاجب يعلن أسماء القادمين»

أنطونيو : قيامًا نَشرب الخمرا ... على حُبّ كليوباترا

كليوباترا : على حُبك أنطونيو ... على الجيش على مصرا

قائد رومانى : على روما

كليوباترا : دَعوا روما ... ولا تُجروا لها ذِكْرا

فما أنطونيو منها ... وإن كان ابنَها البِكْرا

ولكنْ تحت أعلامى ... يَقودُ البرَّ والبحرا

القائد : أحقٌّ مارِكُ أنطونيو ... س مِن روميَّةٍ تَبرا ؟

[تنظر اليه كليوباترا فيقرأ فى عينيها ما تريد]

أنطونيو : أجلْ أَتبعُ مولاتى ... ولا أعصِى لها أمرا

كليوباترا : على حُبكَ أنطونيو

أنطونيو : ثلاثًا أربعًا عَشْرًا

أنشو : وإن شئتَ فعشرينَ ... الى ما فوقها سُكْرا

وإن شئت من الدنيا ... وصَلْنا السُّكْرَ للأخرى

قائد رومانى [لزملائه همسا] :

دَعـوا أنطونيـو إنى أرى السُّـكْرَ به أزرَى
لقـد كان الفـتى الفَطْنَ فصـار الحَـدَثَ الغِـرّا

قائد آخر [همسا] :

سنَلبثُ ساعةً نَحتالُ حتى إذا سُلَّتْ عُقـولهُم انسلَلْنا
فمـا المُتَدَلِّه السِّكّيرُ أهلا لِتنصُرَه السيوفُ إذا استُلِلْنا

الحاجب :

أَيـاسُ المُغـنّى وجَـوْقَةُ العُـزّافِ
وراقصاتُ القصرِ

[يدخلون]

كليوباترا : أهـلًا بوفـدِ الآلهـهْ أهـلِ الفنونِ النابِهْ

الحاجب : الشيخُ زَيْنون

رُبَّانُ أنطونْياد [يدخلان]

أنطونيو : ماذا عن الأُسطول منـ ـكَ يا أخِيـلُ نَعلَمُ ؟
هـل نَجَمدتْ فتنتُـه أو لم تَزَلْ تَضَـرَّمُ ؟

أخيل : مَـولاىَ إن البحـرَ يُخـ ـفى سِـرَّه ويكتُمُ

وما نـواه فى غـد مثـلُ غـد مُستَبْهم
فـلا أقـولُ مُقـدِمٌ ولا أقـولُ مُحجـم
ولا أقـولُ يَنـبرِى للحـرب أو يَستَسلم

كليوباترا: أخيلُ، دَعْنا من غدٍ إن غـدًا تَوهَّـم
أخيلُ، ما العيشُ سوى ساعةِ صـفوٍ تُغـنم
فـلا تَكُنْ كداخـل على النَـدامَى يلطـم
أتيْتَهـم مُنـادمًا لم تَأتِهـم لينَـدموا
اليـومَ شُربٌ

زينـون: وغـدًا حـربٌ

غانميز: كلامٌ مُحكَم!

الحاجب: بُـولا الشـاعرْ حَـبْرا الساحرْ

كليوباترا [ضاحكة]:
حَبْرا، أعنـدكَ سِحـرٌ يَشُلَّ طاغوتَ رُوما؟
ويَجعَلُ الناسَ فيهـا حِجـارةً ورُسـوما؟

[القوّاد الرومانيون يدمدمون]

أنطونيو: سيدتى لا تجرحى قُوّادى ولا تَنالى بالأذى أجنادى
وقلّلى السُّخط على بلادى

كليوباترا : أنطونيو ما أنت رومانيٌّ ألم تقلْ إنك لى جُندىٌّ؟
أنطونيو : بلى، وددت أننى مِصرىٌّ وأننى تابعُك الوفىٌّ
* ما فى سوى رضاك لى مُضىٌّ *
أنشو : تلك والله قضيهْ أصبح الراعى رَعيّهْ
حَكم الحبُّ على قيـ ـصرَ والحُب بليّهْ
صار كالشعب وساوَى هَمَجَ الإسكندريهْ!
أنطونيو : حبرا، تكلّمْ ألا عجيبهْ؟ من سحرمَنْفٍ أو سحرطيبهْ
حبرا : إلهَ الحرب سامحنى فإنى غُلبتُ على أبالستى الغضابِ
هم لا يجلسون على غِناء ولا يتحدّثون على شراب!
كليوباترا : ولكنْ قيصرٌ يدعوك حبرا وقيصرُ لا يُردُّ بلا جواب
وانت الكاهنُ العرافُ فانظو أغيرُالسحرشىءٌفى الحراب
حبرا : إذا ما شئتِ مولاتى فإنى أُطالع فى الكُفوف وفى الكتاب
كليوباترا : أُدْنُ من قيصرَ حبرا وانظُرِ الكفَّيْنِ واقرا
أنطونيو : تعالَ حبرا وقلّبْ يَدىَّ يُمنَى ليُسرى
لعل أسرارَ كفى كواشِفٌ لك سِرا

[يتقدّم حبرا و يمعن فى كف أنطونيوس]

ألا ترى لى بقاء؟ ألا ترى لى عمرا؟

(صفحة ٤٣)

ألا تَرى لى بقاء ؟ ألا تَرى لىَ عُمْرا؟

حبرا : يا عَجَبَ الفال ! مولا ى أعجبُ الناس أمرا

حياتُه بيديْه والناسُ يَحيَوْن قَسْرا

إن شئتَ عشتَ نهارا أو شئتَ عُمِّرْتَ دهرا

[قائد رومانى إلى زملائه همسا] :

لو كنتُ منه قريبًا لقلتُ فى أُذْن حبرا

حياتُه فى يَدىْ يديْه أم فى يَدىْ كليوباترا!

كليوباترا : تعالَ الآنَ سَلْ كَفّى وبيِّن ما الذى تُخفى

[يتقدّم حبرا إليها و يمسك يدها بعناية وشغف]

حبرا : يا لكِ كفًّا كنقِيِّ العاجِ ناعمةٍ تَحمِلِ الدّيباجِ

لامِسُها من الجحيم ناجِى !

[ضحك]

تفدى الأَكُفُّ كلُّها يمينا بيضاءَ حمراءَ تَرِفُّ لِينا

كما أَظلّ الشّفقُ النّسرينا

أنطونيو [ضاحكا] :

سمِعتِ حبرا مَلْكَتى كيف ابتكرْ كُلِّف أن يَصنعَ سِحرا فشَعَرْ

بولا الشاعر : السحرُ والشعرُ سواءٌ فى الأثرْ

كليوباترا : لقد أعجبكَ الشعرُ وراقتْكَ معانيهِ
وما سرّك أنطونيو سُروري كلُّه فيه
فما تأمرُ فى حبرا بأىِّ البرِ أجزيه؟

حبرا [لأنطونيو] :

جائزتى يا سيّدى تقبيل هذه اليدِ!

أنطونيو [ضاحكا] :

قَبِّلْ ولا تَرَدَّدِ!

[يقبل يديها بين إقدام وإحجام]

حبرا : عَجَبٌ عينىَ لا تقـ ـوَى على هذا الضياء
هذه كفٌّ إلهٍ جاء فى زِىِّ النساء

كليوباترا : خَلِّنى مِن زُخرُف المد ح ومِن زورِ الثناء
ما وراءَ اليد يا عـ ـرّافُ من غَيْب القضاء؟
أحضيضٌ يومَ الآ خِرِ ـ قُل لى ـ أم سماء؟
خاتَمُ الأيام أوْلَى باهتمام العظماء

حبرا : مَلْكتى يومُكِ فى الأيّام منشور اللواء
نابهُ الصبح كيوم الـ ـشمس عُلْوِىُّ المَساء

خَطَر العِز عليه ومشى فيه الإباء
ثم يتلوه بقاء لم يُطاوله بقاء

أنشو [لزينون] :

رأيتَ الشعرَ قد أجدَى فماذا قلتَ يا فار؟

زينون : إلهتى ومَلاكى كُفّى المُهرِّجَ عنى
قد نال منى ولولا ناديكِ ما نال منى

أنشو : سيدتى عبدُكِ أنشو قد صدق
الفارُ فى مكتبةِ القصر نطق
يقول إن أسرِقْ فزينونُ سَرق !
هَمَّى فى الجلد وهَمُّه الورق
يَسطو على آثار كلِّ من سبق !

أنطونيو : إنى أرى أنشو وأمثالَه زادوا على زينونَ فى الجُرْأَهْ
يا وَيْحَ للشيخ على فضله أصبح فى مَجلسهم هُزْأَهْ

أنشو : هَبوه فى الدرس بحرًا هبوه فى العلم أُمّه
لا يَخلُقُ العلمُ نفسًا ولا يُنبِّه هِمّه

كم عالِم فى يد الجا هلين مُلقَى الأَزِمَّه

كليوباترا : أقِلَّ المَزحَ يا أنشو وأرسلْه بمقدار
فلولا الجهلُ ما رُحتَ تَقيسُ اللّيثَ بالفار

زينون : يا سماء احفظى و يا أرض صونى
أظهرتْ عَطفَها على زينون !

كليوباترا : يا غانميز هاتِ النبيذْ
هاتِ اسقنى واسقِ الحبيب
واسقِ المَلا

بولا الشاعر : بنتُ الدِّنانْ أمُّ الزمانْ
خبَّأها فى قَبْوِهِ
ساقى منا
لونُ الفَرَحْ حِنّا القَدَحْ
سِرُّ السرورْ صَفْوُ الحياهْ
قُوتُ المُنى

كليوباترا : قيصرُ، ذى سُلافةُ الفيومِ
تُنْمَى إلى عَقائل الكُروم

مَخبوءة من عهد مصرائيم
قد عُمِّرت كعُمُر النجوم
دِنانُ مصرٍ لا دِنانُ الروم

القوّاد الرومان [يدمدمون ويتهامسون] :

قائد : قولوا يا رومانيّونا تحيا روما

آخر : تحيا

ثالث : تحيا

أنشو [ضاحكا] :

تحيا الخمر يحيا السُّكْرُ

القوّاد : تحيا روما

جماعة من المصريين : تحيا مصرُ

أنطونيو : أيها الشادى أياسُ بلغ السُّكْرُ مَداهْ
غَنِّنى شعرَ مَلاكى غننى شعرَ الإله
أنا لا أطربُ حتى أسمعَ «الحبُّ الحياه»

أياس [مغنيا] :

أنا أنطونيو وأنطونيو أنا ما لرُوحينا عن الحُب غنَى

غَنِّنا فى الشوق أو غَنِّ بنا نحن فى الحب حديثٌ بعدنا

* * *

رَجَّعتْ عن شَجوِنا الرِّيحُ الحَنونْ وبعينيْنا بَكَى المُزْنُ الهَتونْ
وبَعثنا من نُفاثاتِ الشُّجونِ فى حَواشى الليل بَرقًا وسَنَى

* * *

خَبِّرى يا كأسُ واشهدْ يا وتَر وارْوِ يا ليلُ وحدِّثْ يا سحرْ
هل جَنيْنا من رُبا الأُنس السَّمرْ ورشفنا من دَواليها المُنَى

* * *

الحياةُ الحبُّ والحبُّ الحياهْ هو من سَرْحتها سِرُّ النّواهْ
وعلى صحرائها مَرَّتْ يداه فجرتْ ماءً وظلا وجَنَى

* * *

نحن شعرٌ وأغانىٌّ غدَا بهوانا راكبُ البيد حدَا
وبنا المَلّاحُ فى اليمّ شدا وبَكَى الطيرُ وغَنَّى مَوْهِنا

* * *

مَن يكنْ فى الحب ضَحّى بالكَرَى أو بمسفوح من الدمع جرَى
نحن قربنا له مُلْكَ الثرى ولقينا الموتَ فيه هيّنا

* * *

فى الهوى لم نألُ جُهدَ المُؤثر وذهبنا مَثَلًا فى الأعصُر

هو أعطى الحبَّ تاجَ قيصر لم لا أعطى الهوى تاجَ مِنا

* * *

صوت : مرحى مرحى يحيا الفنُّ

آخر : يحيا الشعرُ

ثالث : يحيا اللحنُ

[تقوم كليوباترا الى شرفة فيتبعها أنطونيوس]

قائد رومانى [لزميل من زملائه هامسا] :

هلّا نظرتَ الى الأميرة؟ إنها سَكْرَى تَعثّرُ فى خليع عِذارها

آخر : وتأمّل المفتونَ كيف جرى على آثارها وانجرَّ فى تيارها

آخر [لزملائه حيث يسمعه أوروس وأولبوس] :

وانظرْ الى أوروسَ فى تَرَدّدِهْ يأبى الهُتافَ معنا لمولدِهْ

أولبوس [ساخرا] :

أوروسُ مِلءُ يومه مِلءُ غدهْ فتى تَضِجُّ الحربُ من مُهنّدهْ

ويَشتهى الأبطالُ فضلَ سُؤدده قد راعنى فناؤه فى سيده

بنفسه وقومه ومولده يَغلو غُلُوَّ الكلب فى تودّده

يُقيِّدُ الكلب وراء مَرصَده فيحرُس الدارَ على مُقيّده

أوروس :

تلك الدُّعابةُ يا طبيبُ ثقيلة فحَذارِ ثم حَذارِ من تكرارها
لولا الوليمةُ والشَّرابُ وحُرْمة لأميرة الوادى السعيد ودارها
لنزعتُ من أقصى لهاتك مُضْغَةً كثُرَتْ على الأبطال فى استهتارها

أولمبوس :

أوروس !

أوروس :

أولمبوسُ صَهْ بَرِحَ الخفا ورأيتَ نفسَك فى مَفاضِح عارها
ماذا خَبأْتَ من السُّموم لملكةٍ غفَلتْ عن الأفعى ولُؤم جوارها ؟
إلّا تكنْ علمتْ فإنك عندنا جاسوسُ كاتافيو على أسرارها
مازلتَ منذ وفدتَ تُطلِعُه على أخبار قيصر أو على أخبارها
إنا رجالَ الحرب ليس يَفوتُنا لَحْظُ العيون ولا خَفِيُّ حوارها

[أولمبوس يحاول أن يتكلم فيمسك به قائد رومانى ويهمس إليه] :

أقْصِرْ أخى إن الجماعةَ عَربدت فإذا لَجَجتَ لَفَتَّ من أنظارها
إسلَمْ بنفسك فى الظلام ولا تُثِرْ ريبًا أخافُ عليك غِبَّ مَثارها

تلك الدعابة يا طبيب ثقيلة فحذار ثم حذار من تكرارها

(صفحة ٥٠)

إنى لأخشى الكأس أن تجرى دمًا فتُصيبَ شيئًا من رَشاش عُقارها

أولمبوس [لنفسه وهو ينسل الى الخارج] :

أوروس ! أنطونيو ! حسابُكما غدًا وروما الأبيّةُ لم تَنَمْ عن ثارها

[يخرج]

أنطونيو [من أقصى البهو] :

أما للرقص هيلانـ ـةُ فى ليلتنا حصّـهْ ؟
ألا نَجمَعُ بين الكا س والنغْمة والرقصه ؟
فهذى فُرصةُ الأُنس وقد لا تَرجع الفُرصه

هيلانة : الراقصاتُ يَقمْنا الراقصاتُ يَثِبنا
ولا يَدعْنَ افتنانا ولا يُقصِّرْن فنّا

[تقوم الراقصات ، برقصة مصرية]

أنطونيو [قادما] :

مرحى مرحى يحيا الفنُّ

صوت : يحيا الرقصُ

آخر : يحيا الحسنُ

أنطونيو :

قد انتصف الليلُ أوفوقَ ذاك وآذننا بالمُضِىِّ الدُّجَى

ودونَ الخيام سُرَى ساعةٍ ... وعند الصباح تدورُ الرحى
فهل تأذنين لنا يا مَلاكُ ... فلا بد من سِنةٍ من كرى
ولستُ أقولُ مَلاكى الوداع ... ولكن أقول إلى الملتقى

كليو باترا :

مكانَك قيصرُ لا تذهبنّ ... ولا تبرَح القصرَ أهلِكْ أسَى

أنطونيو :

ذَرينى أُعِبّْ للقتال كتائبى ... فلى فى غدٍ شأنان فى البر والبحر
ذرينى اهيّئْ للأحاديث فى غدٍ ... فإن غدًا يومٌ سيبقى على الدهر
ذرينى أَزِدْ تاجيْك غارَ وقائعى ... وأقرِن بثعبانىْ جلالهما نَسرى
ولستُ أخافُ الدارعينَ وإنما ... أخافُ فُجاءاتِ الخيانة والغدر
وليس كَمينَ الحرب ما أنا هائبٌ ... ولكن كمينَ الغدر فى ظُلمة الصدر

[لأخيل] :

فياقائدَ الأسطول هل من مَكيدةٍ ... تُدبّرُ لى خَلفَ الشّراع وما أدرى ؟

كليو باترا :

إمضِ إلى الهيجاء أنـ ... ـطونيو كما يَمضى الأسدْ
إن الأسود فى اللّبَدْ ... دونك فى هذا الزَّرَدْ

إمضِ إلى المجـد ولا يُقعِدْك شُغلٌ فى البلد
المجدُ لا يَسألُ عن صاحبـةٍ ولا وَلَـد
أنت لـروما فى غـدٍ وقيْصرونُ بعـد غـد
والشرقُ سلطانى الذى إكليلُه لى انعَقَـد
يالَيْثُ سِرْ، يانَسرُ طِرْ عُدْ ظافرًا أو لا تَعُـد

« ســـتار »

الفصل الثالث

« معبد فى الاسكندرية ، يقسم جداره المسرح الى قسمين »
« القسم الأصغر خارج المعبد وتنهض فيه شجرة باسقة ، والقسم »
« الأكبر داخله وتظهر فيه حجرة الكاهن الأكبر أنوبيس »
« وعلى جدرانها رفوف نسقت عليها حقائق وقوارير وهناك »
« صرر وصناديق يشف بعضها عما فيه من أفاع وحيات — باب »
« خلفى يؤدى الى المعبد . ونافذة جانبية تطل على الفضاء »

[فى حجرة الكاهن أنوبيس]

أنوبيس [يناجى نفسه] :

يقولون أنوبيسُ ... ولوعٌ بأفاعيه
ومشغوفٌ بثعبانٍ ... من الوادى يُربّيه
وفى ناديه حيّاتٌ ... من الجنِ تُناجيه
ولو ذاقوا هوى العلم ... كما ذقتُ فنَوْا فيه
ألا يارُب خدّاعٍ ... من الناس تُلاقيه
يَعيبُ السُّمَّ فى الأفعى ... وكلُّ السم فى فيه!

[يخرج من الباب الخلفى]

* * *

[خارج الهيكل — تحت الشجرة — أنطونيوس وأوروس]

أنطونيوس : أوروس إنى جَهِدتُ مَشيا ... ومَسّنى الضُّر والكَلالُ

فَـلْ بنا نَستَرِحْ قليـلا من قبلِ أن يَدهَمَ الرجال

[يجلس أنطونيوس منهوكا على حجر فتأخذه الذكرى] :

أوروسُ، ماذا دهانى؟ حتى نَسِيتُ مكانى
أتيتُ ما هَدّ مجدى وحَطَّ رفعـةَ شانى
جلّلتُ نفسى بعـار يبـقى بقـاء الزمان
لمـا حَمَلتُ جوادى على الفِـرار ازدرانى
وضجّ مِـنىَ سـيفى وضجّ مـنى سِـنانى
ووَدّتِ الأرضُ تحتى لو طُهِّرَتْ من عِيانى
أنا الذى كان أمضَى من الحـديد جَنانى
الشرقُ يَدرى نِزالى والغربُ يَدرى طِعانى
كانَ الملوكُ عبيدى فصِرتُ عبدَ الحسان
ولسـتُ أوّلَ حُـرٍّ إستعبدتْه الغـوانى

[يسكت لحظة ثم يستمر] :

ولم أرَ كالحرب استراح قتيلُها وأفضى الى القَيْدِ الأسيرُ المُقَيَّد
ولكن شقُّ الحرب والمُصطلى بهـا
إذا انفضّتِ الحربُ الطريدُ المُشرّد

ولولا اختلافُ الحرب بالناس لم يَهُنْ
عزيزٌ ولم يَنزِلْ على القيْـد سـيّد

أوروس :

وقارَك قيصـرُ لا تَجـزعنَّ ... وخلِّ المقاديرَ تَجرِى المدَى
تَلقَّ الهزيمـةَ ثَبْتَ الجنَان ... كما كنتَ تلقى الفُتوحَ العُلا
فمـا أنتَ أوّلُ نَجـمٍ أضاء ... ولا أنت آخرُ نجـم خبـا
وقد تنزِلُ الشمسُ بعد الصعود ... وتَسقَمُ بعد اعتدال الضُّحَى
و يارُبَّ غارٍ عَراه الجُفوفُ ... على هامةٍ قد علاها البِـلى
أمالك أنطونيـو أُسْـوَة ... بيوليوسَ قيصرَ أين انتهى؟
رأيتك والحربُ تَبْلو الكُماةَ ... فأشهدُ كُنتَ إلهَ الـوغَى
وقد كان سَيفُك غُولَ السيوف ... وكانت قَناتُك غولَ القنا
وكنتَ إذا الموتُ أفضَى إليك ... تَحدّيْتَـه فانثنى القَهقَرَى
وكان جُنـودُك شَر الجنود ... عليـك وخـيرَهمُ للعِـدى
فخـانت أساطيـلُ أمَّلتَهـا ... وجيشٌ عَقدْتَ عليه الرجا
وخُلِّفتَ فى عَسكرٍ كالنِّعاج ... كثيرِ الثُّغـاءِ قليـلِ الغَنا
فمن يائس مات قبل القتال ... ومن خائنٍ فرّ قبـل اللقا

أنطونيو :

إذنْ لم أكنْ فى الوغى بالجبان ولا خُنتُ أوروسُ عهدَ الهوى ؟
وتشهدُ أنىَ أنطونيوس وأنى ابنُ روما وأنى الفتى ؟
فإن عِشتُ عِشتُ نقىَّ الجبين وإن مِتُّ مِتُّ كريم الثنا

[يرى أنطونيو شبحا فيسأل أوروس مبهوتا]

أنطونيو : أوروسُ !

أوروس : مولاىَ

أنطونيو : تأمَّلْ مَن ترى ؟

أوروس : هذا أولمبوسُ وقد حَثَّ الخُطا

أنطونيو : تُرَى إلى أين ؟ ومن أين أتى ؟

أوروس : ها هو سارٍ نحونا ها قد دَنا

[يظهر أولمبوس]

أولمبوس : تحيـــةً قيصـــرُ

أنطونيو : بل أنطونيو لا غير بل قُلِ الشَّريدَ المُقتَفى
لا تخدعونى قادرًا وعاجزًا كفى غرورًا بالولايات كفى

أولمبوس : مـــولاى

أنطونيو : لستُ اليومَ مَولَى أحدٍ أكتافيو السيِّدُ والعبدُ أنا

مررت بالقصر فكيف ناسُه؟ هل عن كلوباترا أولمبوسُ نبَا؟
صرِّحْ أبنْ، قُل غَدرتْ، فل جَدّتْ بقيصر الثالث دُولةَ الهوى
قد صَنعتْ بى عند حاجة الوغى ما لم يكنْ يصنعهُ بىَ العدا
أسطولُها إلى مراسيه أوَى وجيشُها ألقى السلاحَ ونجا

أولمبوس : مولاى ! أعْفِنى

أنطونيو : تكلمْ لا تخفْ إنى أرى عليك رَوْعَةَ الأسى

أولمبوس :

مولاى مهلاً فى الظنون واتّئِدْ إن من الظن اتهاماً وأذى
أنت على مالكَ من مُروءةٍ رميْتَ بالغدر أحب مَن وفى

أنطونيو : ماذا تقول ؟

أولمبوس : كيلبترا انتحرت بطعنة الخنجر فى صدر الضحى

أنطونيو :

ياللسماءِ ! انتحرتْ ! أين ؟ أَبِنْ ولمْ ؟ وكيف كان ذاك ؟ ومتى ؟

أولمبوس :

مَررْتُ بالقصر ضُحَى اليوم فلم أَجدْ له نَظْما ولا حُسنا يُرى

بَدا لعينيَّ خَلاءً موحِشا غيرَ عويلٍ هاهنا وهاهنا

أنطونيو : إنحـرتْ ! يا لِلْخبرْ! ويا لِقسـوة القـدر !

إن الأمـورَ انتقلتْ من خَطـرٍ إلى خَطر

ما غَـدرتْ وإنمـا أنا الذى بهـا غَـدر

واعْجَلتا من قولهـم انحـرتْ وما انحـر !

إذهب أُولمبوسُ ودعـ ـنى والهمومَ والكدر

ما بجِـراحات القـلو ب للأطبّـاء بَصَـر

[يذهب أولمبوس]

[روما] :

روما حنانَك واغفرى لفَتاكِ أوّاه منك وآهِ ما أقسـاكِ !

روما سلامٌ من طَريدٍ شارد فى الأرض وَطّنَ نفسه لهلاكِ

اليومَ يَلْقى الموتَ لم يَهْتِفْ به ناعٍ ولا ضَجَّتْ عليـه بواكى

إن الذى أعطاكِ سُلطانَ الثرى لم تنعـمى لـرُفاته بـثَراكِ

إن الذى بالأمس زِنت جَبينَه بالغارِ عقَّك جُهدَه وعصاكِ

يا رُبَّ تاج فى جبينك زاهرٍ عطَّلتُ منه مَفارِقَ الأملاكِ

الأُمَّهـاتُ قلوبُهنّ رقيقـةٌ ما بالُ قلبِـك لم يَلِنْ لفتاكِ !

أعرضتِ غضبي في الحياة فرحمةً ... لا تحرميني في الممات رضاك
إن كان موتي كلَّ ما تبغينه ... فهناك! هأنذا أموتُ، هناك!
يا أمُّ، عذرُك في اتهام بُنُوَّتي ... بادٍ وعُذري في العقوق كذاك
لولا الجمالُ وفتنة من سحره ... ما حلَّ في قلبي هوًى لسواك
صفحًا كليوباترا فربَّتَ زلَّةٍ ... قد كنتِ تغتفرين حين أراك
لما لقيتُك في الجمال وعزِّه ... قهرتْ قُواي الظافراتِ قُواك
فنسيتُ في ناديك ذِكْرَ وقائعي ... وسلوتُ أيامي بيوم لقاك
سجدتْ لأعلامي الصَّوارمُ والقَنا ... وأبى مُهنَّدُ لحظك الفتَّاك
قدتُ الجحافلَ والبوارجَ قادرًا ... ما لي ضَعُفتُ فقادني جفناك؟
أخرجتِ أمري واختياري من يدي ... وتركتِني نفسًا بغير ملاك
خلتُ السلامةَ في نواكِ فذُقتُها ... فإذا الكوارثُ كلهنَّ نواك
عاديتُ قومي في هواك وأضرمتْ ... روما عليَّ الحربَ من جرّاك
وشردتُ في شرق البلاد وجدِّفي ... طلبي عِداي بغربها وعداك
أغدو على سيف العدوِّ وناره ... وأروحُ بين مكامنٍ وشباك
وتلمَّستْ نفسي السيوفُ ورامني ... في البر والبحر الكميُّ الشاكي
كانت حياتي للرجالِ أليَّةً ... واليومَ هُنْتِ فأقسموا بهلاكي

ولقد ذهبتُ من الظنون مذاهباً ... فذممتُ عهدكِ واتّهمتُ وفاك
حتى إذا حُمَّ القضاءُ وراعني ... عُطُلُ المقاصر من بهاء حُلاك
ضحّيتُ بالدنيا وقُلت رخيصةٌ ... وبذلتُ أيامي وقلتُ فِداك

* * *

أمانًا إلهَ الحرب ما أنت صانعٌ ... بهذا الحُطام المُستباح المُبعثَر؟
لقد ذَلَّ من بعد امتناعٍ كأنه ... بقيةُ نَصْلٍ أو رُفاتُ غَضَنْفَر
صَدعتَ أكاليلي وحطّمت صارمي ... وجرّدتني من أرجواني المُظفَّر
ولم تألُني هدْماً وكنتَ بَنيْتي ... بناءَ الصّناع القادر المُتحبّر
ملأتَ سبيلي بالهوى وصروفه ... ومن يمشِ في أرض الهوى يتعثّر
تنكّرتَ حتى اخترتَ لي معْولَ الهوى ... فليتَك لم تغضبْ ولم تتخير

أوروس: أُروسُ غلامي، إن في النفس حاجةً ... وعندي أقصى طاعة العبد فأْمُر

أنطونيو:

أُوروسُ أرى الدنيا بعينيّ أظلمتْ ... وكانت قديماً كالصباح المنوّر
وضاقت بيَ الأرضُ الفضاءُ فكلُّها ... سبيلُ طريدٍ ضائعِ الدّم مُهدَر
غويتُ وأَوْفى بي على الحُفرة الهوى ... فخفتُ، ومن يركبْ شفا الجُرْف يُذْعر
قُشَعريرةُ الخوف اعترتْني ولم تكُنْ ... إذا ما اقشعرّتْ تحتي الأرضُ تعترى

مُلِئتُ من الأحداث رُعباً فضُمَّنى ... اليك وقَرِّبْ من إزارك مِئْزرى
أرى الموتَ ممدودَ اليدين كمنقذٍ ... لمثلى من غَرْقَى الحياة مُسَخَّر
دعانى، ولو أنى على النفس مُشْفِقٌ ... مَدَدْتُ إليه الكفَّ لم أتأخَّر
أُروسُ، أرى الماضى يُطيفُ خيالُه ... وتَعرِضُ لى أحلامُهُ فى التذكر
ذكرتُ بروما أرْبُعِى وملاعبى ... وأين ضِفافُ النيل من شَطرتَيْبَر؟
وأيامَ يَدْعونى الهوى فأُجيبُه ... وينفخُ فى البُوق المنادى فأنْبَرى
فَتِئْتُ الغوانى بُرْهةً وفَتَنَّنى ... ولكننى عن سُؤدَدٍ لم أقصر
فهمَّةُ قلبى فى شرابٍ وصَبْوةٍ ... وهِمَّةُ نفسى فى عَلاء ومَفْخَر
أروسُ تواقَفنا على كلِّ غَمْرةٍ ... وكلِّ مجالٍ ثائرِ النَّقْع أكْدَر
وفى مِهْرجان الفاتحين وعُرسِهم ... وتحت لِواء أو على عُودِ مِنْبر
فمالتْ بنا الدنيا فصِرنا بموقِفٍ ... شديدٍ على الأبطال بالذل مُشعِر
نرى الأرضَ فيه والسماء تناهتا ... إلى فَلَكٍ نَحْسِ الجهاتِ مُسمَّر
فكيف مُقامى يا أروسُ على الأذى ... وصبرى على العيْش الذليل المكدَّر!

أروس :

أجلْ قيْصرُ اعْتضْنا من العِزِّ ذِلَّةً ... ومن حِلْيةِ الأعلام عُطْلَ التنكُّر
فهُنَّا كأنقاض الحصون على الثَّرى ... وضعنا عليه كالقنا المُتكسِّر

نَهِيمُ كأبناء السبيل وطالما أخَفْنَا سبيلَ العاهِلِ المُتكبِّر
ومامَنزِلُ الأبطال إلا رَحَى الوَغَى إذا هى دارتْ أو رِواقُ المُعسْكَر

أنطونيو : فماذا ترى أوروس ؟

أروس : رأيُك أوّلُ وعندك تُرجَى نَظْرة الصدق فانظر
لقد عِشتُ ظِلًّا لا أرى غيرَ ما تَرَى ولا خيرَ فى الرأى التَّبيع المُسيَّر

أنطونيو :

أروس ، أنا الأعمى وأنت لى العصا فخُذْ بزِمام العاجز المُتحَيِّر

أروس :

أرى ما يراه العاجزون إذا جرى على النفس مَحتوم القضاء المُقدَّر

أنطونيو :

وماذا يقولُ العاجِزون إذا ابتُلُوا ؟

أروس : يقولون حُكْمُ اللهِ يا نفسُ فاصبرى

أنطونيو :

أروسُ ، يقومُ العاثرون وقلّما يُقالُ عِثارُ الكَوْكبِ المُتغوِّر
أروسُ ، ألم تفهمْ ؟ هو الذُّلُّ فاشفِنى بِضَرْبةِ سَيْفٍ أو بِطَعنةِ خَنجَر

فإنك حرٌّ إن فعلتَ وفائز ... بسيفى وأثوابى ودرْعى ومِغْفَرى

أوروس :

مَعاذَ خلالِ البرِّ مولاى ! أَعْفِنى ... فليس يدى تَقْوَى ولا السيفُ يجترى
وأنت الذى لو بِيعَ بالروح وُدُّه ... ومالى سوى روحى تقدَّمت أشترى
لآلهة الرومان أشكوكَ قيصرى ... ظَلَمْتَ فلم تُنصِفْ ولا أنت تَقْدُر
أَتجعلُ فى الميزان حُبِّى وطاعتى ... وشَتَّى عُروضٍ من ثِيابٍ وجَوْهر ؟
لقد جادلنى بالسيف والدِّرع قيصر

[يطعن نفسه بخنجره] :

وجُدتُ بأيام الحياة لقيصر

أنطونيو :

أوروسُ، عفواً قد ذهبتَ ضحيةً ... وجَنَى عليك تَرَدّدى الممقوتُ
فعلمتَ منى كيف يَجبُنُ قيصرٌ ... وعلمتُ منك العبدُ كيف يموتُ

[يطعن أنطونيو نفسه فيخرّ على الأرض جريحا]

[ينتقل المشهد إلى داخل المعبد حيث يدخل أنوبيس إلى حجرته ويناجى أفاعيه]

أنوبيس :

هلمَّ لكنْ بناتِ التلال ... وجنَّ الخرائب منْ صَالْحَجَرْ
تبدَّلَ من حولكنّ المكانُ ... وأين القِفارُ وأينَ الحُجَر

فعلمت منى كيف يجبن قيصر وعلمت منك العبد كيف يموت

(صفحة ٦٥)

يـدُ العـلم وهى حـديديةٌ ... حَوَتْكنّ من جَنبات الحُفَر
وجاءت بكنّ إلى حُجـرتى ... أُسارَى القوارير رهنَ الضَّرر
أرابنىَ النـاس فى أمركنّ ... وصـرتُ حديثَهم والسَّـمَر
وقيـل أنو بيسُ حاوٍ تسيلُ ... إليـه الأفاعى إذا ما صَـفَر
وما فتنتى بحُـلودٍ لكُنّ ... مُرَقَّشَةٍ كإهاب النمِـر
ولا بهيا كلَ مثـلِ العِصِىّ ... من اللحم لا من فروع الشجر
ولا برءوس كَدِقِّ الحصـا ... ولا بعيونٍ كوَقْدِ الشَّرَر
ولكن أزاولُ علم السـموم ... وعلمُ السـموم جليلُ الخَطر
لقد كان لى فى مُعـاناته ... تجاريبُ أنفقتُ فيها العُمُـر
إلى أن نجحتُ، نعم قد نجحتُ ... وعاقبـة الصـابرين الظَّفَـر
فكم قد شفيتُ بطبى اللّديـ ... ـغَ وأيقظتُ من نَزْعِه المحتضر
فقيـل إلهٌ أعاد الحيـاةَ ... إلى الميّت أوخِدْنُ جنٍّ سَحر
صَنعتُ من السـم ترياقَـه ... وقد يختفى النفعُ تحت الضرر
وأنتنّ والنـاسُ قد تلتقون ... ففيكُنّ شرٌّ وفى النـاس شر

[تدخل حابى خلسة]

أنوبيس [مستمرًا] :

وتقتلن عُمْىَ عيون السلاح ... وَ يقتلُ قاتِلُهم عن بصر
لِسانُ ابنِ آدمَ أو نابُكنّ ... كلا السائلين لعابُ القدر

حابى : سلامٌ أبتِ

أنوبيس : حابى ؟ ... سلامٌ لكَ يا حابى

حابى : أمشغولٌ أبى اليومَ ... بذات القَرْن والنابِ
وأنطونيوس مهزومٌ ... وأكتافيو على الباب ؟

أنوبيس [باستخفاف وهو يشير إلى أفعى] :

حابى، تقهقر ناحيهْ ... تلك الخبيثةُ داهيهْ

[يتقهقر حابى قليلا بينما يلهو الكاهن أنوبيس بالحقاق والقوارير]

تلك القوارير ذوى الحِقاقُ ... غَوْثٌ الى مُستنجِدٍ يُساقُ

* لكل سُمٍّ عندها تِرياق *

أبتى، من للرعيّهْ ... من لأوطانى الشقيهْ ؟
خَلِّ حيّاتِك فى الأسـ ... ـفاط واشعُرْ بالرزيّه
بعد حين تملأ الوا ... دى الأفاعى البشريّه
أبتى نحن من اليو ... م عبيدُ القيصريه

أَدنِ أُذْنيْـك على قُـدْ سهما من أُذُنيّـهْ
واسمع البوقَ تَجِدْ مِن أحرُف الـرقِّ دَوِيَّـه

أنوبيس : حابى، تَقبّلْ هذه القِنّينهْ وآقبِضْ عليها بيدٍ ضنينهْ
فإنهـا ذخـيرةٌ ثمينـهْ !

حابى [لنفسه] :

يا لَلسـماءِ لأبى ! تُـراه يَسْـتهزِئُ بى ؟
ويحَ له ، عسـاه جُـ ـنَّ أو لعـله نـبى
أوحتْ له السماءُ عل ـم غَيْبِهـا المُحَجّب
يَعـلمُ من يُـلدَغُ من رَقطاءَ أو مِن عقرب
لأحْمِلَنّ حُقَّـه مثـلَ تَميمةِ الصّـبى
يالكَ شـيخًا طيِّبًا يأتى بـكل طيب !

[مخاطبا أنوبيس الكاهن] :

رِيـعَ الحِمَى أبى فكيـ ـف للحِمَى لم تَغضَبِ ؟
دِعِ الأفاعى واشتغِلْ بالأفْعُـوان الأجنب
الوطنُ المَـلدوغ أوْ لَى اليـومَ بالمُطَبِّب

أنوبيس : وأين كنت يا فتى وأين فتيان الحمى ؟
وأين فُرسانُ المقا ل هل مضَوْا إلى الوغى ؟
أَدَرتُمُ وجوهكم ساعةَ دارت الرحى
تركتم أنطونيو سَ وحدَه يلْقى العِدا
من أجلكم سلّ الحُسا مَ وإلى الحرب مشى
ما كان ضرّكم لو الـ ـتففتُم على اللِّوا ؟
أبعد أَن حلّ على الـ ـنيل ووادِيه القضا
ولم يجدْ من شِيبِهِ ولا شبابِهِ فِدا
أَتيتَ تدعونى كما تدعو العجائز السما
الرأْىُ ليس نافعًا إذا أَوانُهُ مضى

[يدخل جند من حرس الملكة]

الجندى : مولاى ، ذاتُ الجلالة
أنوبيس : الملكةُ الآن عندى ؟

[تدخل كليوباتره فى حاشيتها]

كليوباتره : تحيةً يا أبتِ
أنوبيس : سيدتى فى حُجرتى

مُرِى بما شئتِ يَكنْ وإن تحدَّى قدْرتى

كليو باترا :

أَبى ، أعلمتَ أن الجيشَ وَلَّى وأن بوارجى أبتِ المُضيَّا

أنوبيس :

علمتُ وكان ذلك فى حسابى وذا حابى بـه أفضى إليّـا

كليو باترا :

وهل نَبّاك عن أنطونيوس وكيف جرتْ هزيمتُه عليّـا
وما أدرى أأردوْه قتيـلا صباحَ اليوم أوأخذوه حيّا؟
أبى ذهب الحليفُ فكُنْ حليفى فقد أصبحت لا أجِدُ الوليّا
أبى خفتُ الحوادثَ

أنوبيس : لا تُراعِى لَباةُ النيـل ليس تخافُ شَيّا

كليو باترا :

أبى لا العزلَ خِفتُ ولا المنايا ولكن أن يَسيروا بى سَبيّا
أيوطَأ بالمَناسِم تاجُ مصرٍ وثَمّتَ شعرةٌ فى مَفْرِقيّا؟

أنوبيس [باستخفاف] :

لتأتِ المقاديرُ أو فلْتَذَرْ تعالىْ كلوبترا ألقِ النظرْ

كليوباترا :

أفاعٍ ؟ أبى ، نَحِّها ، أَخْفِها ؟ أعوذُ بإيزيسَ من كلِّ شرْ
فماذا تريدُ بإحراذهن وهل يقْتنِي عاقلٌ ما يضر ؟

أنوبيس :

أُتيتُ بهنّ لدرس السُّموم ولم أَخْلُ فى علمها من نظر
أداوى بها أو بترياقها مُحبَّ الحياة أو المنتحر

كليوباترا [كأنما تحدّث نفسها] :

محبِ الحياة أو المنتحر !

كفى أيها الشيخُ ! بل هات زِدْ فما بىَ خوفٌ ولا بِى خَوَرْ
وإن تَكُ بى خشيةٌ فى النساء فلى جُرْأةُ المَلِكات الكُبر
تكلّمْ فليست سمومُ الأراقـ ـم فى الخُبث دون سُموم البشر
فيارُبَّ صَفْوٍ سَقَيْتُ الرجالَ فلما تَرَوَّوْا سقونى الكدر

أنوبيس :

قِصارٌ وهُنّ سهامُ المَنون وليس يَعيب السهامَ القِصَرْ
تَمَسُّ الفريسةَ مسّ السنان وتمضى مَضاءَ الحسام الذَّكر
وكلُّ الذى لَمَستْ مَقتَلٌ ولو أنشبت نابَها فى ظُفُر
إذا جَرحَتْ لم تَقُمْ عن دمٍ كذلك يجرحُ سهمُ القدر

ومائتُها لا يُحِسُّ المنونَ كمَن مات فى النوم لا يُحتَضر

كليوباترا [مردّدة قوله فى صوت خافت] :

ومائتُها لا يُحِسُّ المنون كمن مات فى النوم لا يُحتضر!

ولكن أبى هل يُصانُ الجمال؟

أنوبيس : نعم لا يَحولُ ولا يَندثر

كليوباترا :

وهل يَطفأُ اللون ؟

أنوبيس : لا بل يُضيءُ كما رفَّ بعد القِطاف الزَّهر

كليوباترا :

وهل يُبطِلُ الموتُ سِحرَ الحُفون ويُبلِي الفُتورَ ويُفنِي الحَوَرْ

أنوبيس :

كعهد العيون بطَيْف الكرى إذا الجَفنُ ناء به فانكسر

كليوباترا :

أبى ، والشفاهُ؟

أنوبيس :

لواقى الذُّبول كما احتُصِر الأُقْحُوانُ النَّضِر

وما الموت أقسى عليها فمًا ولا قُبلةً من عوادى الكِبر

كليوباترا :

وما عَضَةُ النـاب ؟

أنوبيس :

وَخـــزٌ أخـفُّ وأهْونُ من وَخَزات الإبر

كليوباترا :

وما شَـبَحُ الموت ؟

أنوبيس :

ماذا أقـــولُ ؟

كليوباترا : تُمَثِّلُهُ لى كأنْ قد حَضَر

أنوبيس :

زعمتِ ابتى الموتَ شخصًا يُحَسُّ وعَظَّمتِ من خَطْبه ما صَغُر
وما هو إلَّا انطفاءُ الحيـاةِ وَعصْفُ الردَى بسراج العُمرُ
وليس له صُـورةٌ فى العيون على قُبْـح صُورته فى الفِكَر
إذا جاء كان بَغيضَ الوجوه وإن جِىءَ كان حبيبَ الصُّوَر

كليوباترا :

إذن هـذه الرُّقْطُ فى ذمـتى فصُنْها وأحسِنْ عليها السهر

وأقسمْ لَتَأتِ إلىّ بهنّ ولو أن دونى الظُّبا والسُّمُر

أنوبيس :

يمينًا بإيزيسَ أحملُهن إليك ولو فى سِلال الخُضَر
إذا بات فى خطر تاجُ مِصـ ـر سبقتُ إليك بهنّ الخطر

كليوباترا :

أتجعلُ لى يا أبى آيةً أميزُ الرسولَ بها إن حضر؟

أنوبيس :

هو التين أبعثُ حابى به وبالرُّقط بين غُضون الثمر

* * *

ابنتى ذلك محرا بى ادخليه للصَّلاهْ
واسكُبى الدمعَ عسى أن يَقبَلَ الدمعَ الإله
هو ذو المُلكِ الذى يبـ ـقى ويفنى ما سواه

[خارج الهيكل — ثلاثة جنود رومانية]

الجندى الأول : تحيا روما يحيا قيصرْ

الجندى الثانى : روما العُظمى أبدا تنصرْ

الجندى الثالث : ما ذاك؟ مافوق الطريق؟ ماأرى ؟
ميلا رفيقىّ معى لننظرا

الأوّل : هناك مقتولان ضَرَّجا الثرى

الثانى : نعم أرى ثَمَّ دما وخَنجرا
وهيكلين من حياةٍ أفقرا

الثالث : جُبِتَارُ يا مُصيِّرَف الحروبِ بارِكْ لنا فى هذه الجيوب !
وابعثْ لنا بالذهب المحبوبِ

الأوّل : يا عَجَبَ الأقدار ! أنطونيوسُ ؟

الثانى : أنطونيو ! أَجلْ وذا أوروس !
وأحسَب السيدَ مات بيدهْ ثم حذا العبدُ مثالَ سيِّده
لهفى على أنطونيو فى مرقدهْ

[يئن أنطونيو ثم يحرّك رأسه و يتبين الجنود]

أنطونيو : ويحى أخىٌّ أنا جريحٌ ؟ ما ذا يُريدُ القضاءُ ما ذا
جنودُ أكناف أدركونى يا ليتنى مِتُّ قبل هذا

جندى : لا بل جنودُك لكن خانوك حُبًّا لروما

آخر : وما نَسُوك عليهم تحت اللواء زعيما

ترمى بهم مَطلعَ الشمـ ـس أو تَـؤُمُّ النجوما

أنطونيو :

يا جنودى وصحـابى ليس ذا وقتَ العتاب
اتركونى وعذابى

[يغمى عليه]

جنـدى :

لَهَفى عليه عاده الإغماء وأوشكتْ تَنزِفُه الدماء
وليس إسعافٌ وليس ماءُ

آخـر :

هَلُمّا احملاه هَلُمّا احملا وجيئا بمولا كما الهيكلا
وأمضِى فأُبلِغُ أكتافيوا حديثَ أعرّفُه المنزِلا

[فى حجرة الكاهن — كليوباترا والكاهن والحاشية عائدين من المحراب]

كليوباترا :

أبى دخلتُ ونفسـى حَيْرَى الزِّمام حزينـهْ
وقـد تركتُ المُصَـلَّى ومِـلءُ قلبى سـكينه
إن الصَّلاةَ عـلى شـ ـدّة الزمان مُعينـه

[يسمع صوت الجند من الخارج]

كليوباترا :

ما تسمعون أصيخوا شَـرٌّ وهـذا بَريـدُهْ

كان الضجيجُ بعيدًا والآن يدنو بعيدُه

حابى :

أسمعتم ! ضجةٌ صاخبةٌ وجريحٌ وجُنودٌ فى الطريق
هاهُم قد دخلوا الدار به

أنوبيس : دارُنا الشاطئُ لا يأبَى الغريق

حابى :

هاهُم قد حضروا

أنوبيس : يا مرْحبًا أعدُوًّا كان أم كان الصديق

[يدخل الجنديان اللذان يحملان أنطونيوس]

كليوباترا :

ويْحَ عينى ماذا ترى؟ ومن المحـ ـمولُ كالسيف فى الأكفِّ خضيبا؟
أيها الجندُ ما بأيديكمُ اليـو م ؟

جندى : جريحٌ على الطريق أصيبا

كليوباترا :

أفتدرون مَن حَمَلْتم؟

جندى : حَمَلنا هَيكلا عزَّ فى الرجال ضريبا
قد عرفناه خيرَ من هزّ رُمحًا ونضا صارما ولاقى الحُروبا

[تتأمل كليوباترا فى وجه الجريح]

كليوباترا :

آه أنطونيـو ! حبيبي أدركوني بطبيب
ماترون الأرض ترَوى من دَم الليث الصَّبيب
أبتى ، أين قـوى طـ ـبِّـ ـك والسحر العجيب
هو فى إغمـاءة الجُـر ح فنبِّهْـهُ بطـيب
هـو ذا يفتـحُ عينيْـ ـه ويُصغى لنحيـبى

أنوبيس [محاولا إسعاف الجريح] :

تلك أنفاسُه توالَى وهـذا جسمه لايزال غَضًّا رطيبا
هـو ذا قد تَحَاجّتْ شفتاه وتهيّـا لسـانُه ليَشـوبا
أيها المَلكةُ ارفُقى بجريح باتتحت الرداء جُرحا صَبيبا
لاتنـاديه بالدموع مِرارا ربما ضَرَّ جُرحَه أن يُجيبا

أنطونيو :

كيلُبترا ! عَجَبٌ ! أنتِ هنـا ! لم تموتى...هم إذنْ قدكَذَبونْ

كليوباترا :

سيدى روحى حياتى قيصرى أنت حىٌّ؟

أنطونيو :

بعد حين لا أكونْ

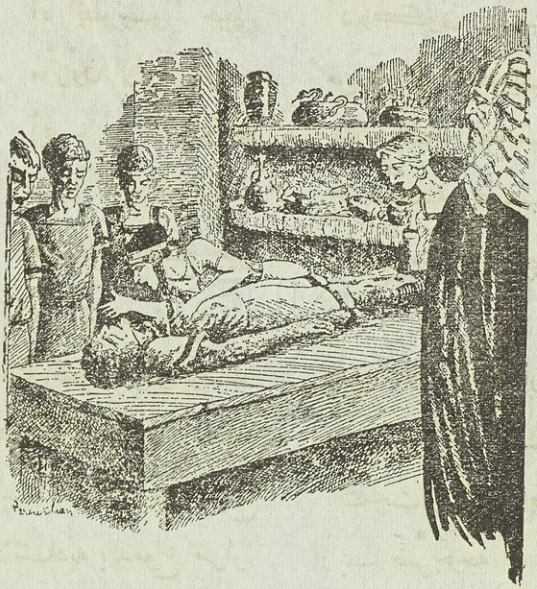

آه أنطونيو حبيبي أدركوني بطبيب

(صفحة ٧٩)

كليوباترا :

من نعانى كذبا ! من قالها لك !

أنطونيو : أولمبوسُ النذلُ الخؤون

مَرَّ فاستوقفتُه أسألُه قال ماتتْ فتجرَّعتُ المنونْ

* * *

كليوباترا زوّدينى قُبلةً من ثناياكِ العذابِ الشَّبِمات

وأضيئى بسَناها مُقلةً يُسْدِلُ الموتُ عليها الظُّلُمات

سيقولُ الناسُ عنى فى غد من أولى الرحمةَ أوأَهل الشَّمات :

بَطَلٌ لم تَظفَرِ الحربُ به فى الهوى تحت لِواء الحب مات

[يسلم الروح]

كليوباترا :

قد تداعى محْوَرُ الأر ض وميزانُ الشعوبِ

مال كالشمس جمالًا وجلالا فى الغروب

أيها المجروحُ لو تد رى جُروحى ونُدوبى

أيها الذاهبُ قد آ ن عن الدنيا ذُهوبى

أيها الخالِصُ وُدًّا ليس يُودّى بالمَشوب

أيها الصادقُ وعدًا ليس وعدى بالكَذوب

عن قريب ينطوى القبـ ـرُ علينا عن قريب
كلّلوه بالرياحيـ ـن وبالغار الرطيب
واهتفوا فى أذنيه بأناشيد الحروب

* * *

واحبيباه، جاء الموت فاستسـ ـلم لا يستطيع إلّا ذهوبا
كان ما خفتُ أن يكون وحلّتْ نكبة لم تفاجئ المنكوبا

[تستوى قائمة]

أيها الجندُ مات قيصرُ فابكوا معىَ السيدَ الجسورَ الوهوبا
شبّكوا ساعديه من فوق صدر كان فى الرَّوْع بالمنايا رحيبا
واعرضوا سيفَه على راحتيه وارفعوا الرمحَ من يديه قريبا
لا بل امضوا الشأنكم جُندَ روما ودعونى وسيفَ روما السّليبا
أنا وحدى له ديارٌ وأهلٌ إن دعا داره ونادى النّسيبا

[ينسحب الجنود]

ويحَ لى قد طلبتُ عند طباع النـ ـاس ما عزَّ عندهم مطلوبا
خَلَق الناسُ للقوىّ المزايا وتجنَّوْا على الضعيف الذنوبا
واحتفوْا فى الحياة والموت بالغا لب فانظُرْ هل عظّموا مغلوبا
شيّعوا الشاةَ جيفةً بمُداهم واتّقَوْا وهْو فى الرِّمام الذّيبا

أنوبيس :

الوقارَ الوقارَ يا لَبْأَة النيـ ـل ولا تجعلى الزئيرَ النحيبا
وقِفى للخُطوب فى عِزّة المُلْـ ـك وفى كِبْره تُذِلّى الخطوبا

[يدخل جندى من جنود أكتافيوس]

الجندى :

قيصر أكتافيوسُ آتى يعودُ أنطونيوسَ قيصرْ

كليوباترا :

قيصر ! فرّ الأسير منه مَن فى حمى الموت ليس يُؤسر

[يدخل أكتافيوس ومعه جنود]

أكتافيوس :

سلامٌ مَلِكةَ الوادى سلامٌ كاهنَ المُلْكِ
يقولُ الناسُ أنطونيو هنا لم يَبتعِدْ عنك

كليوباترا :

نعم لم نَفترقْ بعد وإن أمعن فى تركى
وهذا الجسد الفانى جَلاءُ الرَّيب والشك

أكتافيوس :

إذن قد قُضِيَ الأمرُ وصار الليثُ للهُلْك
كلوباترةُ لا تَخشَىْ فلن آخذه منك!

كليوباترا :

أبِي تهزأُ أم بالمَيْـ ـتِ أم بالموقفِ الضَّنك
إن استطعتَ على مالـ ـك من بَطش ومن فَتك
وما حَوْلك من خيل وما تحتك من فُلْك
فخُذْه من يد الموت ومن عاجزةٍ تبكى!

[يدنو جندى من جنود اكتافيوس ليتحقق موت أنطونيوس]

كليوباترا :

مكانَك يا عبدُ لا تَهتِكنْ على سيد الهالكين القِناعْ
تُريد لتكشفَ عنه الغطاءَ عسى تحته حيلةٌ أو خداع
عَبَثْتَ به وهو تحت الطِّيالـ ـس مُلقَى السلاح قليلَ الدفاع
ولم تَحتشِمْ بُقعًا من دم عليهنّ تَحسُدُ مصرَ البِقاع
رُوَيْدَك، ما الموتُ مُستبعَدٌ ولا هو مستغرَبٌ من شجاع
وإن التماوتَ فعلُ الثعالـ ـب ليس التماوتُ فعلَ السباع

أكتافيو :

أناتَـــكِ ســـيدتى إنـــه ... فتى طاهرُ القلب حـرُّ الطباع
أراد ليحتـاطَ لى جُهـــدَه ... ويُخلصَ فى خدمتى مااستطاع
تَنحَّ أخا الجند ما أنت والميـ ... ـتَ!لايَقْرَبُ الشمسَ إلاَّشُعاع!
أتأذَنُ ســيدتى أُن أطيـ ... ـفَ بخدِن الصِّدام رفيق الصِّراع؟
ومن كنتُ تحت القنـا ظِلَّه ... ومن كان ظِلّى تحت الشِّراع
وكنا نَشـيد لروما الفَخارَ ... ونَجْنى لهـا الغارَ من كل قاع
ونأتى القِـــلاعَ فنحتلهـا ... وإن بعُدَتْ كالنجوم القلاع
ونَركِزُ فى السهل أرْماحَ روما ... ونُطلِـعُ أعلامَها فى اليَفـاع؟
بإذنـــك ؟

كليو باترا :

قيصـرُ لا إذنَ لى ... أينهى ويأمر من لا يطـاع؟
تصرَّف بجُثمانه كيف شئـ ... ـتَ فليس له اليومَ منك امتناع
وما جُثَّـةُ الليث إلاّ لَـقًى ... إذا الناب طاحت أو الظُّفْرُ ضاع؟

[يتقدّم أكتافيوس فيرفع القناع عن وجه أنطونيو]

أكتافيوس :

لقد حسم الموتُ ما بيننا ... وغَضَّ اللَّجاجَ وفَضّ النزاع
فمن حَقِّ اليومَ بل واجبٌ ... على أُقدِّسُهُ أن يُضاع
أُقبِّلُ ما قبَّل الغارُ منـ ... ـك وأهتفُ : أُنطونيوسُ الوَداع

[ستار]

الفصل الرابع

« فى القصر الملكى ، فى غرفة العرش ، شرفة مطلة على »
« البحر . كليوباترا متكئة على حافة الشرفة ، شرميون »
« وهيلانة فى أقصى الحجرة تنهمر من عينيهما الدموع »

كليوباترا [كأنما تناجى نفسها] :

نام « مَرْكُو » ولم أنَمْ ... وتفرَّدتُ بالألمْ
ليت جُرْحى بكُرحه ... لَقِيَ الموتَ فالتأم
قاتلَ اللهُ ماضياً ... قتل المُفرَدَ العَلَمْ
أنطوانُ انفُضِ الكرى ... ساعةً وانقُلِ القَدم
قمْ كأمسِ اغنَمِ الهوى ... واشربِ الراحَ بالنَّغم
وتَخَيَّرْ على المُنَى ... وتمتَّعْ من النِّعم
واغمرِ الأرضَ بالقنا ... وتغلَّبْ على الأمم
وقُدِ الخيلَ فى الوِها ... د ووثبًا إلى القِمَم
أيها العين أبصرى ... إنما كنتِ فى حُلُم!

[ملتفتة الى شرميون] :

يا شرميون باغنا موْقِفًا حَرَجا ... لا الرأىُ ينفعنا فيه ولا الباسُ
لم يَبقَ ثَقبُ رجاء كنت أَلْمحُه ... إلَّا تعرّضَ حتى سدَّه الياسُ

[تلقى نظرة على الإسكندرية من الشرفة]

نجمى يُحدّثنى بوشك أفوله إسكندريةُ، هل أقولُ وَداعا؟
وَشّيْتُ بَرّكَ جدولًا ونخيلةً وكسوْتُ بحرَكَ عُدّةً وشراعا
وأنا اللّباةُ وقد ملأتُك غابةً وأنا المَهاةُ وقد ملأتُك قاعا
قد خفتُ من بعدى عليكِ ممالكا يُطلِقْن فيك الفاتحين سِباعا
يأتين زرعَك بالرّياح عواصفًا ويجئنَ ضرعَك بالذئاب جياعا
فإذا الحضارةُ بعد طول بنائها قد دُكّ ركنُ بنائها وتداعى

شرميون :

بإيزيسَ سيدتى بالوَلاء بطول التعاشر والمُصطحَبْ
بمالى ببابك من خدمة ومن صُحبةٍ تُشبهان النَّسب
على أى وجه أدرْتِ المصيرَ وقلّبتِ رأيكَ فى المُنقلب؟
فهذا السكونُ يُثيرُ الشكوكَ وهذا الهدوءُ يثيرُ الرّيب
وماذا اعتزمتِ؟ وماذا كتمت؟ أبِيني فما بيننا من حُجُب
ولى فى حياتِك رأىٌ يُساقُ وليس علىَّ إذا لم يُصب

كليو باترا :

إذن فاذكرى أن خصمى العتيد يخافُ انتحارى ويخشى الهربْ
وليس الذى يَشتهى لى الحياةَ ولكن له فى حياتى أرب

له فى غـد مَوْكبُ الفـاتحيـ ... ـن إذا أقبلوا فى جلال الغَلَب
يَجرُّون فى رومـةَ الأُرجوانَ ... وقد بَرَزتْ فى الثياب القُشُب
وتزدانُ بالغـار هاماتُهـم ... إذا ارتفعت فى الخميس اللِّجب
يُحاولُ قيصـرُ مـنى المُحالَ ... ويذهب فى غير وجه الطلب
يُرِيـدُ ليَعرضَنى فى غـد ... على شعب روما كأنى سَلَب
ويفضحُ مصـر وسلطانَهـا ... وتاجَ العصور وعرشَ الحقب
لقدساء تدبيرُ أكتافيوسَ ... ولم يَلقَ من خُدعتى ما أحب!

[تسمع وطء أقدام]

ماذا وراء الباب ؟

شرميون :

حسُّ قادِمِ

هيلانة :

أجلْ دبيبُ حارس أو خادِمِ

كليوباترا :

بل حارسٌ جافٍ ... من حَرَس القصر
مُعـربِدُ الخَطـو ... من نشـوة النصر
لا تسـعُ الأرض ... رِجليْهِ من كِبْر

شرميون :

مَلْكتى دعى هـذه الفِكَرْ
جنـدُ رُومـةٍ يَعْبُـدُ البِـدَرْ
فى سـبيلها يركَبُ الغَرَرْ

كليوباترا :

شرميون صَـهْ إنـه حضَـرْ

[يدخل حارس]

الملكة : ماذا وراء الجندى ؟

الحارس : رسالة من عبـد

هل تأذنين ؟

الملكة : أدِّ

الحارس : أيها المَلِكَةُ قـد جا ءَ إلى القصر غـلامْ
فى ثياب الحقل حُلوُ الـ ـشـ ـكل ممشوق القوام
جادل الحُرَّاسَ فى حِذ ق ورفـق بالكلام
يَـدَّعى أن أباه كان عبـدًا للمَقـام
ناله بستانُ تين من أياديك الجسام

فهْـو يهْـدى لك باكو رتَـــه فى كل عام

الملكة [هامسة] :

شرميونُ ذاك حابى وجَنـــاه فى يمينـــهْ
جاءَ فى المِيقات يُهـدى لىَ باكورةَ تينـــه

[للحارس]

ألا تَقْبَـــلُ يا حـــار س منى هـذه البَدْره ؟

الحارس : بشكران وهيهات على الشكرانِ لى قُـدْره

الملكة : والآن لو تُحْضِرُ لى الفلاحا لعله يُحدث لى انشراحا
إنى نسيت البَسطَ والمزاحا

الحارس : علىّ السـمع والطـاعه سآتيك بـــه الساعه

[يخرج الحارس]

الملكة : يا شرميونُ تعلّمى الدنيا ويا هيلانةُ اختبرى الزمانَ القاسى
إن التى حُرستْ بأبطال الوغى باتت تُصانعُ سِفْلَةَ الحراس

[يدخل حابى فى ثياب فلاح ومعه الحارس]

هيلانة [همسا] :

حابى نعم وتلك نظرتْه وهـذه مشيَتُه وخَطرتُه
يا ليت شعرى ما تكون سَلّتُهْ ؟

حابى : تحيـــةٌ للمَـلِكهْ ونعمَـــةٌ و بَرَكهْ
ونفسُ عبـــدها لهـــا وكلُّ ما قـد ملكه
ســـيدتى جئت إلى بحـرك أُهـــدى سمكه
أحمِـلُ تينـا ولـــو اسـ ـتطعتُ حملت مملكه

حابى : ســيدتى

الملكة : أُدنُ فإنـــه ابتعـدْ وقُلْ فما يسمعُ غيرنا أحدْ

حابى : ســيدتى

الملكة : حابى ، أنوبيسُ اجتَهدْ لنا وأنجز الغـداة ما وعدْ!
يُريدُ أن يَشفيَنى مما أجد وأن يَقى مملكتى عارَ الأبد
جئتَ كما يأتى لوقتـه المَـدد
وَفَيْتَ لى حابى ولم تكنْ تَـفى ضعِ السِّلالَ وانصرفْ لا بل قف
حتى ترى كيف يكونُ مَوقِفى

[تلقى نظرة على السلال]

ما لى مُلئتُ من المنيَّـة رهبـةً إن المنيـةَ فى رقاب النـاس
آسى الجراح جَزِعتُ عند لقائه والنفسُ تَجـزَعُ من لقاء الآسى

إنى طويتُ بساطَ كل مُدامة ... لم يبقَ إلاشربُ هذى الكاس
يا خادمىّ بل ابنتىّ تلطّفا ... فى البحث حتى تأتيا بأياس
فعسى يُغنّينى نشيدَ الموت أو ... نغما أَجود عليه بالأنفاس

شرميون :

مَلْكتى نادى أياسا ... إنه بالقُرب منكِ
هو فى المقصورة الأخـ ... ـرى مع الباكين يبكى
فكُره فيكِ ولا يَجـ ... ـسُر أن يَسألَ عنك

الملكة :

ياوَيحَ صَحبى بَعد طول سرورهم ... قعدو إلى أحزانهم يبكونا
جيئى بهم يا شرميونُ لينظروا ... جَلَدى فيهدأ بعضُ ما يَجدونا

[تخرج شرميون]

كليوباترا [تتغنى على زنبقة فى أصيص] :

زَنبقةٌ فى الآنيهْ ... ضحيةُ الأنانيهْ
جَنَتْ عليها غُرْبةَ الـ ... ـأسر الأكُفُّ الجانيهْ
وبُدِّلتْ من سَعة الـ ... ـبَرّ بُوَة ضيقَ الباطيه
يَسقونها من جَرَّة ... بعد العيون الجاريه

يا جارتا شأنك لا يُشْبِهُ إلا شانيه
لم يبق من مُلكى العريـ ـض غيرُ دار خاويه
وكلُّنا ذابلةٌ عما قليل ذاويه
زال النعيم وفرغـ ـنا من حياة فانيه

[ترجع شرميون ومعها أياس وأنشو وغيرهم]

الملكة [الى أنشو] :

أنشو يَعِزُّ علىّ أنك ساهمٌ يبدو عليك الهمُّ والتفكيرُ
أنشو ألا قَوْلٌ يَسُرُّ وضحْكةٌ إن السعيدَ الضاحكُ المسرورُ
قد كان أيسرُ ما صنعت يسرنى أعلَى سرورى اليوم أنت قدير؟

أنشو : سيدتى جرى بما فيه سرورُك القدرْ
من لا تسرُّه السما ءُ لا يسره البشرْ

الملكة : أياسُ، هل من صوتِ؟ غَن نشيدَ الموت

[أياس يغنى هذا التشيد]

يا طيبَ وادى العدَمْ من منزل من منزل
لم تَمش فيه قدمْ للعُزَّلِ وادٍ خَلِ
أنا فيه لحبيبى وحبيبى فيه لى

***

يا موتُ مِلْ بالشِّراعْ واحمِلْ جَريحَ الحياهْ
سِرْ بالقلوعِ السِّراعِ إلى شُطوطِ النجاه

***

شِراعُكَ الفِضِّى فى لُجِّهِ التِّبرى
كالحُلْمِ فى الغَمضِ يجرى ولا يجرى

***

فى ظلِ ليلٍ ساجْ أقسمِ لا يَسرى
مُغلَّلِ الديباجْ مُطيَّبِ السِّترِ

***

فى يقظةٍ يَظهرْ لى أم أرى حُلْمَا
فُلْكٌ من الجوهرِ يَخترقُ الظَّلما

***

على الدجى لمَّاح تَحسَبُهُ نجما
ليس به ملّاح يسلُكه اليمّا

***

أضْوَى من الفجرِ فى ظُلمةِ الأسداف
من نفسه يجرى لم يُجرِه مِجداف

***

مَدّ شِراعَ النورْ يا حُسنَ ما مدّا
كاللؤْلؤ المنثور لو يَنفَحُ النَّدّا

***

يا لكَ من زوْرقْ مَلّاحُه الأقدارْ
ينجو به المُغرَقْ من لُجّةِ الأكدار

[يدخل الحارس]

الملكة : ما وراء الحارس؟

الحارس : الطا عة ياذاتَ الجلالهْ
قائد يحِملُ من قيـ ـصرَ أكتافو رسالهْ

الملكة : أدخله ، أدخلْ رسولَ قيصرْ

[يخرج الحارس و يدخل القائد]

القائد : قيصرُ العالى إلى سـ ـيـ ـدتى يُهدى التحيهْ
هو فى الثُّكنة بالقر ب من الدار السنيه
يُظهِرُ العَطفَ عليها وهى بالعَطف حَرِيّه
و يقولُ الأمرُ ما تأ مُرُ فى الاسكندريه
ولها الوادى وما يحـ ـمِلُ مُلْكا ورعيّه

وبنوها يَرِثون الـ ـمُلكَ من روما الوصيه
وإذا حَلّتْ بـروما وجدت روما حَفيّـه
تتلقّاهـا كأغلى درة فى القيصـريه
ما الذى تَقـترحُ المْلـ ـكةُ ما تُمـلِى عَلَيّـه
لِتقـلْ سـيدتى حا جتَهـا تُقْضَ العشيّه

كليوباترا [كأنما تناجى نفسها] :

وإذا حـلت بـروما وجـدت روما حفيه !
تتلقـاهـا كأغلى درة فى القيصـريه !

[تضحك فى تهكم وألم]

أيهـا القـائـدُ أدّيْـ ـتَ فأحسنتَ الأَداءْ
بَلّغنْ قيصـر عنى كلَّ شكر ودُعاء
ثم زِدْ أمنيـةً قـد بَقيَـتْ لى ورجاء
أنا لا أكتُمُه ما سَرَّ من أمرى وساء
لِىَ سرٌّ كاد عن نفـ ـسِى يَزِويه الخفَاء
صُنته عن صاحباتى وصحابى الأمناء

حبذا لو زارنى قيـ ـصرُ فى هـذا المساء
وله الشكرُ إذا لم يأتِ أو إن هـو جاء

القائد :

سأذكرُ مولاتى لمولاىَ قيصرٍ وأنقُلُ ما أبديتِ من رَغَبَات
ولِمْ لا يُلبِّى دعوةَ الحسن طائعًا ويسعى له مُستعجِلَ الخطوات ؟
وقد كان يوليوسٌ يقومُ ببابه ويَمثُلُ أنطونيوسُ فى العتَبَات !

كليوباترا [بعظمة] :

أسأتَ أخا الرومان فهم إشارتى

القائد :

إذن فَهِبِى لى تلك من هفَواتى

[يخرج القائد]

كليوباترا :

أرانى لم يُحسِنْ إلىّ مُعاصرى ولم أَجِدِ الإنصافَ عند لِداتى
فكيف إذا ماغيبَ الموتُ ذَادتى وبَدَّد أنصارى وفَضَّ حُماتى !
كأنى بعدى بالأحاديث سُلِّطت على سيرتى أو وُكِّلَتْ بحياتى
وبالجيل بعد الجيل يَروى زخارفًا فمن زور أخبار وإفك رُواة
يقولون أُنثى أَفنت العمرَ بالهوى بهيميّة اللذات والشهوات

فِـدًا لغرامى بالرجال وحُسنِهم ... غرامُ الغوانى أو هوى المَلِكات
فليس الغلامُ البارعُ الحسنِ فتنتى ... ولا الرائعُ الأجلاد والعضَلات
ولم يَستَثِرْ وَجدى من الروم فتيةٌ ... جُنون العـذارى فتنةُ الخَفِرات
ولا كلُّ غصن من بنى مصرَ مائلٍ ... يَطـيرُ إليـه قلبُ كل فتـاة
يموتون بى عشقًا و يَشقون بالهوى ... فكم من حياة فى يدى ومـمات
ولكن عِشقتُ العبقريَّةَ طِفـلةً ... وفى الغافلات البُلْهِ من سنواتى
كلِفتُ بكهل أحرز الأرضَ سيفُه ... وحيزتْ له الدنيا من الجنبات
إذا هب من غرب البلاد تلفَّتتْ ... بلادٌ بأقصى الشرق منذعرات
تَعـثَّرَ حظى بعـد طول سلامة ... وأقلع نجمى بعـد طول ثبـات
ومن يَمش فى وَرد الأمور وشَوْكها ... يَعُـدَّ الخُطا أو يحسِبِ العثرات

[تنظر إلى السلال]

يا مرحبـا بالسِّـلَّهْ ... والـرُّقُبِ المُطِـلَّهْ
الكافيـاتى الـذِّلَّهْ

[ينسحب الجميع مطرقين ما عدا الملكة ووصيفتها وحابى]

كليوباترا :

أدخلى بى يا شرميون على طِفْـ ... ـلىّ أُودِّعْهمُ الـوَداع الرهيبـا

فعساهم إذا تحجّب صدرى وجدوا صدرَك الحَفِيَّ الرحيبا

[لحابى وهيلانة] :

ولدىَّ أهجروا القصورَ فإنى قد وجدتُ النعيمَ فيها غريبا
ولها ضجةٌ وفيها فُضولٌ يُرهِقُ الحبّ واشيا ورقيبا
خلّيا عنكما المدائنَ يا بُنَّ فضوْضاؤها تُميت القلوبا
إن لى فى سهول طيبةَ حقلًا طيبَ الماء والهواء خصيبا
غَرسته يد الشباب فأضحى وارفا كالشباب حُسنًا وطيبا
ألّفَ الحبُّ من نواحيه أيكا جمع الطيرَ هاتفا ومُجيبا
يُسمِعُ البُلْبُلُ العشيقةَ فيه وتُغنِّى الأليفةُ العَنْدليبا
أفُقٌ لا يُظِلُّ إلا مُحبًّا وثرى لا يُقِلُّ إلا حبيبا
إشربا من كرومه واسقياها صافىَ الحب والهوى المسكوبا
والعبا عند كلّ ماء غدير تريا الماءِ للحَبابِ لعيبا
وسلا الوردَ هل تنَفَّسَ فى الور د وهل ناسم البعيدُ القريبا
أدركا لذةَ الشروق ولمّا تبلغِ الشمسُ بالحياة الغروبا

[تخرج كليوباترا وشرميون]

حابى :

هيلانُ، هذا مقالُ النصح من مَلَكٍ ... فما ترَيْن وما تنْوين هيلانا

هلُمّ طِيبةَ نترلْ فى خمائلها ... ونَبْنِ مِثلَ بناء الطير دُنيانا

كطائرَيْن على بحرٍ وعاصفةٍ ... قد آنسا من وراء الشَّط بستانا

تداركتْنا أبرُّ المالكات بهِ ... وأشرفُ الناس إحساسًا ووِجدانا

هيلانة :

حابى، عرفتَ الحلال الطيّبات لها ... وكنتَ أمس أقلَّ الناس عِرفانا

حابى :

خلِّ الجفاءَ حياتى إن ساعتَه ... مضتْ وهذا أوانُ السِّلم قد آنا

اللهُ يشهدُ أنى قد سدلتُ على ... ما كان من نَزَعات الرأى نسيانا

وأننى اليوم أبكيها وأُندُبها ... ولا أقيسُ بها فى الطهر إنسانا

اليوم ضحّتْ وزكّاها الفداءُ كما ... زكّى المُقرِّبُ باسم الله قُربانا

هيلانة :

إن التى شب فى نَعمائها صِغَرى ... ونبّهتْ لى سُلطانها شانا

إن لم أمُتْ دونها أو لم أمت معها ... فما جَزَيْتُ عن الإحسان إحسانا

حابى :

والحبُ هيلانَ؟ ماذا تصنعين به إن الصداقة فوق الحب أحيانا

هيلانة :

حابى أراها أزْمَعَتْ وأرى الفجيعةَ واقعهْ

فاذهبْ فجِئْ بأنوبِس فعسى يردُّ الفاجعه

حابى : وسواءٌ أردَّها أم أبى ذلك القدر

فى غدٍ أيها المَلا كُ الى طيبةَ السفر

[يخرج حابى]

هيلانة : ويح حابى اعتقادُهُ أن سأحيا فنلتقى

ليتنى نِلْتُ قُبلةً منه قبل التفرُّق

[تدخل كليو باترا وفى أثرها شرميون]

كليو باترا :

بروحى وإن لم تَبْقَ منى بقيَّةٌ صغارٌ ورائى ذُوِّقُوا اليُتمَ نُوَّحُ

أذوبُ لبلواهم وأعلمُ أننى حَمَلتُ عليهم ما يَجِلُّ ويَفدَح

وقد أشتهى عيشَ الذليل لأجلهم فلا المجدُ يَرضى لى ولا النُبلُ يَسمَح

فصفحًا صغارى إن شَقِيتُم بمصرعى وإنى لأرجو أن تَغضّوا وتصفحوا

وَداعا صغارى صَيَّرَ اللهُ يُتمَكم ... إلى خير ما يَكفى اليتامى و يُصلح
أطفتُ بكم والنومُ تَسرِى سِناتُه ... على صفحات كالأهِلَّة تَلمَح
وما منكمُ فى الخَزِّ إلّا حمامةَ ... عليها طليلٌ ناعمَ الفَرْعِ أفيح
تنامُ وما تدرى الكرى ما وراءَه ... ولا الصبحُ فى ظلِّ الرُّبا كيف يُصبح
أتغدوا على الدنيا كأمسِ طليقةً ... ضُحى اليوم أم يُغدَى عليها فتُذبَح؟

[ملتفتة إلى هيلانة وشرميون] :

فيم هيلانةُ تبكيـ ... ـن وأنت شرميون
كفكِفا الدمعَ فلا شـ ... ـدّة إلّا وتهون
واعلما بِنتىَّ أن الـ ... ـبؤسَ والنعمى دُيون

[تركع أمام تمثال إيزيس]

اليومَ أقصرَ باطلى وضلالى ... وخلتْ كأحلام الكرى آمالى
وصحوتُ من لَعِب الحياة ولهوها ... فوجدتُ للدنيا نُمارَ زوال
وتلفّتتْ عينى فلا بمواكبى ... بُصرتْ ولا بكتائبى ورجالى
وطِئتْ بساطى الحادثاتُ وأهرقتْ ... كأسى وفضَّتْ سامرى ونِقالى
إزيسُ ينبوع الحنان تعطّفى ... وتلفّتى لضراعتى وسؤالى
أنت التى بكت الأحبَّةَ واشتكت ... قبل الأرامل لوْعَة الإرمال
إنى وقعتُ على رحابِك فارحمى ... ذلَّ المُلوك لمجدك المُتعالى

هل تأذنين بأن أُعجِّل نُقْلتى ... وأَحُثَّ عن دار الشقاء رِحالى
وعُلاكِ ما أدعُ الحياةَ جبانةً ... أو ضِيقَ ذَرْعٍ أو قطيعةَ قالى
إنى انتفعْتُ بعبقرىٍّ جمالها ... وتمتعتْ من عبقرىٍّ جمالى
وجمعتُ بين شعورها وعواطفى ... وقَرنتُ رَحْبَ خيالها بخيالى
ووجدتُها قد خلّدتْ أبطالَها ... فبسطْتُ سلطانى على الأبطال
بنتُ الحياة أنا وتَشهَدُ سيرتى ... ما كنتُ من أمى سوى تِمثال
منها تناولتُ الرِّياءَ وِراثةً ... وأخذتُ كلَّ خديعة ومحال
وقسوْتُ قسوتَها ولِنتُ كلينها ... واقتستُ فى صَدّى بها ووِصالى
ولربما رَشَدتْ فسِرتُ برُشدها ... وغَوَتْ فأغوتْنى وضل ضلالى
ووجدتُها حبًّا يَفيضُ ولذةً ... فجعلتُ لَذّاتِ الهوى أشغالى
يومى بأيامٍ لكثرة ما مشت ... فيه الحياة وليلتى بليالى
ولقد لَقيت من الحياة صَبيّةً ... ما جل من بؤس ورقة حال
خلعتْ مُلكى طفلةً وشَردتُ فى ... صدر الصبا ورأى المكارهَ آلى
شرعتْ علىّ السوْطَ فى كُتّابها ... واليومَ تَضربُنى بدرس غالى
ياموتُ هل حَرَجٌ على مُستنجِد ... بك أن يُسابقَ واقعَ الآجال ؟

يـومى أعجّـلهُ ولـو لم أنتحـرْ ... للقيتُ يومًا ماله من تالى
ياموتُ أنت أحبُّ أسرًا فاسبنى ... لا تُعطِ روما والشيوخ عِقالى
ياموتُ لا تُطْفِئْ بشاشة هيكلى ... واحفظْ ظواهرَ لحمتى وجلالى
ياموتُ طُفْ بالروح واسرقْها كما ... سرق الكرى عينَ الخلىّ السالى
حتى أموتَ كما حييتُ كأننى ... بيتُ الخيـال ودُميـةُ المَثّـال
وكأن إغماضَ الجفون تناعسٌ ... وكأن رقدتىَ اضطجاعُ دلال
سِرْبى الى أنطونيو فى نَصرتى ... ورُواء جلبابى وزينـة حالى

[تقوم الى إحدى السلال فتكشف التين عن أفعى] :

هَلُمّى الآنَ مُنقِذتى هَلمّى ... وأهلا بالخلاص وقد سعى لى
شَربتُ السمّ من فيكِ المُفدَّى ... بسلطانى وزِدتُ عليـه مالى
على نابيْـك من زُرق المنـايا ... شفاءُ النفس من سُـودِ الليالى
وبعضُ السـم تِرْياقٌ لِبعض ... وقد يَشفى العُضَالُ من العُضال
دعوْتُ الراحةَ الكبرى فلبتْ ... فبُعـدًا للحيـاة وللنِّضَـال
هَلُمّى عانقى أفـعى قصـور ... بهـا شـوقٌ الى أفعى التـلال
سَطتْ روما على مُلكى ولَصّتْ ... جـواهرَ أسـرتى وحُلِىّ آلى

فرُمتُ الموتَ لم أَجبُنْ ولكن ... لعـل جلالَه يحـمى جـلالى
فـلا تَمشِى عـلى تاجى ولكن ... على جسدٍ ببطن الأرض بالى
وقـد علم البريّةُ أن تاجى ... نَمتْـه الشمسُ والأسرُ العوالى
يُطالبُـنى به وطنٌ عزيزٌ ... وآباءٌ ودائعُهـم غـوالى
أأدخلُ فى ثيـاب الذل روما ... وأُعرَضُ كالسّبىِّ على الرجال؟
وأُحدَج بالشماتة عن يمينى ... ويَعـرِض لى التهكُّمُ عن شمالى؟
وألقَى فى النّـدىِّ شيوخَ روما ... مكانُ التـاج من فَـرْقَىَّ خالى؟
وأغشى السجن تاركةً ورائى ... قصورَ العزّ والغُـرَفَ الحوالى؟
وتَحكُمُ فىّ روما وهى خَصمى ... وتُسرفُ فى العقـوبة والنَّكال؟
يَـرانى فى الحبـائل مُترَفـوها ... وقد كان القيـاصرُ فى حِبـالى
إذن غيرُ المـلوك أبى وجَدّى ... وغَـيرُ طـرازهم عَمّى وخالى!
سأنزلُ غـيرَ هائبـةٍ إذا ما ... تلمَّـظت المنيّـةُ للـنزال
أموتُ كما حَييتُ لعرش مصر ... وأبـذُلُ دُونه عرشَ الجمـال
حيـاةُ الذلِّ تُدفَعُ بالمنـايا ... تَعـالىْ حَيَّـةَ الوادى تعـالى

[تتناول الأفعى وتمهد لها من صدرها فتلدغها ثم ترميها الى السلة]

يا ابنتَىْ وُدّى ... هَلُمّا ... زيِّنانِى ... ... للمنيهْ
غلّلانى ... طَيِّبانى ... بالأفاويهِ ... الزكيه
أليسانى حُـلَّةً ... تُعْـ ـجِبُ أنطونيو ... سنيه
من ثيابٍ ... كنتُ فيها أتلقاه ... ... صبيه
ناولانى التاج ... تاجَ الـ ـشمس ... فى مُلْك ... البريه
وانثرا ... بين ... يدىْ ... عر شى ... الريا ... حين البهيه

[تموت بين وصيفتيها]

شرميون [تتناول من إحدى السلال أفعى] :

كلوبترا و يالهفى عليكِ يا كلوبترا
وَصيفاتُك فى الدنيا وَصيفاتُك فى الأخرى

[وتمهد لها من صدرها فتلدغها وتموت]

هيلانة [تفعل ما فعلته شرميون] :

كلوبترا ذهبتِ اليو مَ بالدنيا كلوبترا
تعالىْ أيها الأفعَى أريحينى أنا الأخرى

[يدخل أنوبيس وحابى]

أنوبيس :

انسلتِ المُهرَة من قَيْدها وأفلت الطيرُ من الصائد!

حابى :

هيلانَ ، يالهفا على الحبيبهْ على الجمال وعلى الشبيبهْ
على الفتاة الحُرّة النجيبهْ

[يتحسس جسمها]

يا للحياةِ ماتنى دبيبا أبى ، تأمّلْ جسمَها الرطيبا
واسمعْ تجِدْ لقلبها وجيبا

أنوبيس :

حابى نسيتَ حُقّةَ النجاة !

حابى : هيهاتِ أعصيك أبى هيهاتِ
إن أنسَ أشياءَك أنسَ ذاتى !

[يخرج الحقة من جيبه]

خُـذْها

أنوبيس :

بل اسكبْ فى فم الفتاةِ لعلها تصحو من السُّباتِ

[يشتغل حابى بإيقاظ هيلانة]

أنوبيس [على جثة كليوباترا] :

بنتى رجوتُك للضحية والفِـدا فوجدتُ عندك فوقَ ما أناراجى

بنتى رجوتك للضحية والفـدا فوجدت عندك فوق ما أنا راجى

(صفحة ١٠٨)

إن تُصبحى جسدًا فنفسُك حرةٌ وعُلاك سالمةٌ وعِرضُك ناجى
سيقولُ بعدك كلُّ جيلٍ مُنصف ذهبتْ ولكن فى سبيل التاج

[ثم يلتفت إلى جثة شرميون] :

وأنتِ أيضًا شرميونُ جيفةْ مُتِّ ولكنْ ميتةً شريفةْ
ما أعظمَ المَلَكةَ والوصيفةْ !

حابى : أُدنُ أبى ألقِ النظرْ يا لَعجائبِ القدرْ !

أنوبيس : أحدث ترياقى الأثرْ؟

حابى : أُنظرْ أبى ترياقَك الـ ـمحسن ماذا منحا ؟
أنظرْ فهذا مَلَكى من رقدةِ الموتِ صحا
قد فتح العينين بعـ ـد اليأس من أن تُفتَحا
وهذه أنفاسُه رَيْحانُها قد نَفَحا
مولاى قد قَرَّبتَ من سعادتى ما نَزحا
أنت الذى رَددتَها رُوحًا وكانت شَبَحا
يا قلبُ كيف لم تَطِرْ عن الضلوع فرحا

هيلانة : يا ويح لى ! ويحَ لِيهْ هل صَدقتْنى عَينِيهْ ؟
حابى، أفى الدنيا أنا؟

حابى : بل أنت دنياى هنا

هيلانة : منـذا حـنى عليّـهْ حـتى بُعثتُ حَيّـهْ ؟

حابى : أبى الذى شفاك يا مَلاكى .

أنوبيس : لا بل مَلاكُ الحب قد شفاكِ
وأدمعُ الإخلاص من فتاكِ

هيلانة : أبى لقد مَرّ على الموتُ وكنتُ من عذابه نَجَوْتُ
علامَ حُلْتَ بينه و بينى؟ المـوتُ لا يُـذاقُ مَرّتـيْنِ

[ترى جثة الملكة وهى تتلفت]

رحماكِ آلهـةَ الوادى ذهلتُ فـلم أذكرْ مَلاكاوراء العرشِ مُضطجعا
بالأمس، لا، لا بل اليومَ التحقتُ به صُرعتُ بالناقع السارى كما صُرِعا
لقـد رَحلنا عن الدنيا الغرور معا مالى رَجَعتُ إلى الدنيا وما رَجَعا
ليت الطبيبَ الذى داوَى فأخرجنى إلى الحيـاة على الدنيـا به طَلَعا
مليكتى ، ربّتى ، صفحًا ومغفرةً إن المروءةَ كانت أن نموت معـا

الكاهن : بُنيّتى ...

هيلانة : صَـهْ أبى ،

الكاهن : لا أنتِ واهمةٌ
فلستُما فى مُلاقاة الرّدَى شَـرَعا

وقفتُما موقفًا فى الخَطْب مختلفًا لو جَرّبتْ فيه غيرَ الموت ما نفعا

حابى : تعالىْ نَحْىَ فى الحَقْلِ مع الطير كما تَحيا :

هَلُمِّى الحبَّ هيلانـ ـةُ فالحبُّ هو الدنيا

أبى دونك بارِكْنا وإن شئتَ فشاركْنا

أنوبيس : إذا فارقتُ محرابى فمن يبكى على مِصرا ؟

سأبقى هاهنا ابْنَىَّ إلى أن أقضِىَ العُمر

هَلُمّا ابنىَّ باسم اللـ ـهِ سِيرا وابنيا الوَكْرا

هلما جنةَ الوادى هلما طيبةَ الغَزّا

لئن فرّقنا الدهرُ فقد تَجمعُنا الذكرى

[يخرجان]

[يسمع صوت بوق] :

أنوبيس : البوق دَوَّى قيصرُ أقبلْ

[يدخل حارس]

الحارس : مولاى قيصر

[ينحنى عن الباب و يدخل قيصر وفى معيته الطبيب أولبوس]

أنوبيس :

ما يبتغى قيصرُ من أسيرتهْ ؟ إن التى أعدّها لزينتهْ

يَدخل روما وهى فى كتيبتهْ تَزيـدُ فى مَوكبـه وقيمتـهْ
ماتتْ ولم تـنزلْ على مشيئتهْ بُورك فى النيـل وفى عَقيلتهْ

قيصر :

آلهـةَ الرومان ! ماذا أرى؟ إمرأةٌ تَسـخَرُ من قائـدِ
قد أبطلَتْ كيْدى على ضعفها ولم تزلْ تَسـخَرُ بالكائـد
فى الجسـد الحىّ تمنّيتُهـا لم أبغها فى الجسـد البـائد

[يركع قيصر عند جثة كليوباترا]

أنوبيس [لنفسه] :

الحـادثُ العجيبُ قيصـرُ والطبيبُ!
يَغـدُرُها وعهـدُه ببـابها قـريبُ

أكتافيو :

عجيبٌ يا طبيبُ أرى قتيلًا ولكن لا أرى أثرَ الجـراحِ!
أليستْ فى الفناء أرقَّ لونًا وأندَى من رياحين الصباحِ
فهل تدنو فتكشف كيف ماتتْ أبا السم الزُّعاف أم السلاح؟

[يقترب أولمبوس ويبكى على صـدر الملكة من الناحية التى رميت فيها الأفعى]

عجيب ياطبيب أرى قتيلا ولكن لا أرى أثر الجراح!؟

(صفحة ١١٣)

ألمبوس :

جبين مُشرقُ الغُرّه ... ووجهٌ ضاحكٌ نضرَه
وعينان كأن المو ... ت فى جفنيهما كسْرَه
وهذا فمُها تبدو الـ ... ـمنايا عنه مُفتَرّه
ولكن قيصرُ ادنُ أنظرْ ... هنا السرُّ هنا العبره
فبين السحر والنحر ... كمثل الخدش من إبره
مكانُ الناب من صِلّ ... شديد البأس والشرّه

[تلدغه الأفعى]

إلهى، قيصرى، آه ... لقد مَسّتْ يدى جَمرَه
سرى السمُّ بأعضائى ... وعَمّتْ جسدى فَتْره
وجاءت سَكْرَةُ الموت ... فلا صحو ... من السَّكْره

[ثم يسقط ميتا]

أكتافيوس :

ويل النفوس من جُفاءات القدرْ!
وويحَ ألمبوس بالأفعى عَثر

أنوبيس [لنفسه] :

قد وقع الحافرُ فيما قد حفر

قيصـر :

وَداعًا كليوبَترا الى يـوم نلتـقى ... وتَنفُضُ عنها الهامدينَ المَقـابرُ
محا الموتُ أسبابَ العداوة بيننا ... فلا الثأرُ ملْحاحٌ ولا الحقـدُ ثائر
وما استحدثَتْ عند الكرام شَماتةٌ ... صُروف المنايا والجُدودُ العواثر
وَداعا و إن نحن اقتتلنا وجَرَّدتْ ... حُساميْهما أوطانُنـا والعَشـائر
تَحدّيتنى بالمـوت حتى قهرتنى ... ومالىَ سلطانٌ على الموت قاهر
ترفَّعت عن قَيْدى ومُتِّ عزيزةً ... وأيـدى المنـايا للقيود كواسر
وأنت التى نازعت روما مكانَها ... وجَرَّتْ بناديك القيودَ القياصر
لعبتِ بأنطونيو و يوليوسَ حقْبَةً ... كما جاء بالمسحور أو راح ساحر
وما أنا إلّا سـيفُ رومةَ باترًا ... أصيبَ به سـيفٌ لرومـةَ باتر
زَجرتُ فلم أُسمَعْ فقاتلتُ مُكرَهًا ... وفى الحرب إن لم تَردَعِ السِّلمُ زاجر
وأنطونيو صهرى الكريم بمثـله ... يُطاولُ أنسابَ الملوك المُصاهر
وَداعًا عروسَ الشرق كلُّ وِلاية ... و إن هَزَّتِ الدنيا لها الموتُ آخر

[يخرج أكتافيوس وحاشيته وتزف التحايا له من الأبواق والحناجر خارج القصر]

أنوبيس :

أكثرى أيها الذئاب عُواءً ... وادّعى فى البلاد عِزًّا وقهرا
أنشدى واهتفى وغنّى وضجّى ... واسبحى فى الدماء نابا وظُفرا
لا وإيزيسَ ما تملّكتِ إلا ... وادياً من ضَياغم الغاب قَفرا
قَسَماً ما فتحتُمُ مصر لكن ... قد فتحتُم بها لرومةَ قبرا

« ستار الختام »

نظـرات تحليلية

كليوباترا والتاريخ :

فى عصر من عصور التطور السياسى الدائم على عرش مصر، وفى النصف الأخير من القرن الأول قبل الميلاد، احتكت عظمة الامبراطورية الرومانية بالسياسة المصرية القديمة، وطوت فى هذا الاحتكاك آخر صفحة من تلك المدنية الزاهرة التى اصطبغت بها مصر فى ظل البطالسة وتحت حكمهم أكثر من ثلاثة قرون .

وجاء دور المؤرخ ليسجل أنباء هذا الاحتكاك فكان من حظ العلم :

(أولا) أن استقى هذا التاريخ مادته من مصدرين كانا كل وسائل التاريخ القديم . فالمصدر الأول آثار يعرض لها عادة فى مثل هذه العواصف السياسية المضطربة غير قليل من التزييف والضياع . والمصدر الثانى رواة يجتهدون فى رواية الحوادث اجتهادا، فيخطئهم التوفيق أحيانا، فيروونها لا كما كانت ولكن كما اشتهوا أن تكون .

(ثانيا) أن نهضت بهذه المهمة الخطيرة أقلام، إما رومانية وإما مدينة لروما هوى أو ثقافة ، فسجلت هذه الأقلام تاريخ هذا الانتقال السياسى فى أسلوب قصصى ، فاز فيه قياصرة

الرومان بأكاليل الغار كلها، فالظافر من بينهم بطل، والمخذول منهم ضحية، وللضعيف على كل ما فعل أو أسف علل قوية من هوى هذه الأقلام فى حين أن الملكة المصرية المظلومة — كليو باترا — الممثلة الأخيرة لمجد البطالسة وسلالتهم، والتى سوّى على حساب سمعتها وكرامتها وأفول نجمها هذا الحساب الخطير، لم تصب منه إلا ركاما من التبعات والآثام واللعنات.

ظهرت حية النيل العجوز — كما نعتوها — فى هذا التاريخ، وعمدته « بلوتارخوس »، وفى معظم الروايات التى استوحته واستقت من معينه، فى مظهر امرأة خطالة متهمة فى عفتها من حيث هى امرأة، وفى جلالها وإخلاصها لبلادها من حيث هى ملكة، مجرد ...

« ... أنثى أفنت العمر بالهوى بهيمية اللذات والشهوات »

خاضعة فى كل أدوار حياتها السياسية لشهوة مذبذبة، تذفع بها رخيصة الى كل صاحب مجد أو جاه، متصلة — ما اتصلت فى هواها — ببطل، منفصلة — ما انفصلت — عن « حطام مبعثر مستباح »، دائبة البحث عن فريسة جديدة تستل آمالها، وتسلبها جلالها، وتهيض من جناحها المحلق فى سماء المجد والخلود... وعجيب أن تقفر حياة كهذه الحياة الحافلة بالمآسى إلا من هذا

الركن الدنس، وعجيب ألا يرى أولئك القصاص فى هذه النفس الطموح ظلا لأمل خير أو حلم نبيل، وعجيب أن تجثم فى كل ناحية من نواحيها رذيلة تهب المداد لهذه الأقلام !

مرمى الرواية :

أليس المؤلف المصرى إزاء هـذا الاضطهاد الصارخ لهـذه الملكة المصرية، بحكم الثلاثة القرون التى قضاها أجدادها العظماء على ضفاف النيل، مستقلين عن كل نفوذ أجنبى، أبرياء إلا من العمل المتصل لمجد مصر ورفاهتها، مستحيلة دماؤهم قطرة فقطرة الى دماء مصرية خالصة على توالى الأيام . أليس المؤلف المصرى فى حل — مادام البحث العلمى يكشف بين الحين والحين فى هذا التاريخ المتهـم عن حلقات ضائعـة أو أوهـام أنزلت فيـه منزل الحقائق — من إنصاف هذه المصرية المضطهدة، ولو إلى الحدّ الذى يتفق مع هيكل هذا التاريخ المجرّد ، ولا يحرمها على الأقل من سمو الغاية ونبالة المقصد ؟

أعتقد أنه ليس فى حل من هذا الإنصاف فقط، ولكنه مسئول عنه الى أن يصل البحث الحديث فى تقرير حقيقة التاريخ القديم الى آخر مداه فيعز من يشاء ويذل من يشاء .

على هـذا الأساس يضع مؤلفنا المصرى اليـوم فى "مصرع كليوباترا" صورتين جديدتين : إحداهما لتاريخ كليوباترا فى قليل من التحوير المنطق المعقـول لتاريخها القـديم، والآخرى لحياة كليوباترا حريصا فيها على أن تحاط بنفس الجو الظنين الذى يحيطها به رواة التاريخ القديم، ماحا إياها الحق الأكبر فى الدفاع عن نفسها وعن سياستها وعاطفتها، غـير تارك لسواها من أشخاص الرواية إلا حظا ضئيلا من هذا الدفاع، وهو إذ يمنحها هذا الحق دون سواها من أشخاص الرواية إنما يحرص أولا على أن يترك لأولئك الأشخاص مطلق الحرية فى تحديد هـذا الجو الظنين، وثانيا على ألا يقسو فى مس الكرامة العامة للتاريخ، وثالثا على أن يترك الباب مفتوحا لتحقيق مالهذا الدفاع من وجاهة فى نظر البحث الحديث المنصف.

كليوباترا فى نظر التاريخ القديم :

ولدت كليوباترا سـنة ٦٩ قبل الميلاد، وكانت على أن تبنى بأخيها الأكبر وتتولى العـرش معه؛ فنوزعت فى هذه الشركة، ففرت إلى سـوريا لتعبئ جيشا هناك تستعيد به تاجها المفقود. وهناك صادفها يوليوس قيصر، فوقعت من نفسـه، فمكنها من العرش شركة مع أصغر أخويها، فما لبثت أن قتلته مسموما وتبعت قيصر إلى روما فاحتفى بها حفاوة أثارت سخط الرومان.

وقتل قيصر فتردّدت كليوباترا أى الصفين تتبع : أصف واتريه أم صف الموترين فيه ، حتى إذا تم النصر لحلفاء قيصر على قتلته دعاها أنطونيوس الى طرسوس لتقدّم حسابا عن هذا التردّد المقصود، وقد لبت دعوته فسارت اليه فى موكب بحرى فخم تجلت فيه روعة الشرق وجلاله وغناه، وكانت يومئذ فى الثامنة والثلاثين من عمرها على أبهى ما كانت من سحر وفتنة و جمال، فما لبث أنطونيوس أن رآها حتى افتتن بها وضحى فى سبيلها بمكانه وكبريائه، وأخيرا بملكه ومطامعه وحياته. وقضيا الشتاء التالى فى الاسكندرية فى غرام نسيا فيه كل شىء ، وعلى أن أنطونيو قد رجع الى روما وتزوّج من أكتافيا شقيقة أكتافيوس، فقد عاد الى كليوباترا وأقام معها وسخا لها ولأبنائها بالعطف والتكريم ، وفى نشوة هذا الجنون كان اسمه يتضاءل فى روما، وكانت قواه السياسية والحربية تخور .

وفى سنة ٣٠ قبل الميلاد اشتبك القيصران فى وقعة أكتيوم البحرية ، وكانت كليوباترا بطبيعة الحال تؤازر بأسطولها أسطول أنطونيوس ، ففرّت أثناء المعركة وفرّ فى أثرها حبيبها المفتون، وبذلك كتبت عليهما الهزيمة الأولى، ثم اشتبك الجيشان فى معركة برية على أسوار الأسكندرية ،وكاد النصر فى أوّلها يواتى أنطونيوس ثم سرعان ما تنكر له وتم عليهما الخذلان الأخير .

وحاولت كليو باترا أن تأسر بجمالها القيصر الظافر، وأن تفعل به ما فعلت بأنطونيوس ، فاشتركت معه فى مفاوضات لصالحها الخاص ، وأرسلت الى أنطونيوس من أوحى اليه بموتها، فاتكأ على ظبة سيفه حتى إذا علم فى احتضاره كذب هذا الوحى، أمر أن ينقل اليها حيث جاد تحت شفتيها بالنفس الأخير . وأيقنت كليو باترا بعدئذ أن القيصر الظافر إنما يخدعها عن نفسها، وإنما يريدها شارة ممتازة فى موكب انتصاره، فانتحرت تاركة وراءها بنتين من أنطونيوس كفلتهما أكتافيا ، وولدا من يوليوس قيصر (قيصرون) قتل فى عهد أكتافيوس ، وجسدا هامدا ضمه القبر إلى رفات أنطونيوس ، وذكريات حية خالدة ...

فضن عن الملوك والقواد وصرن وحى شاعر وشادى
وفتنة اليراع والمداد

وجوه الاختلاف الأساسى بين الحوادث التاريخية والحوادث الروائية

يهمنا من هذه الحوادث إزاء الرواية ما تناول الأيام الأخيرة من حياة كليو باترا، تلك الأيام التى لم تتناول الرواية سواها، فنرى:

(أولا) أن فرار كليو باترا من وقعة أكتيوم كان جبنا وغدرا فى التاريخ :

ونرى أثر هـذه النظرية التاريخيـة فى الرواية حيث يعتب أنطونيوس على كليوباترا :

وقلت انسحبت ضـعفا وقال النـاس بـل غدرا

فى حين أن هذا الفرار فى الرواية جزء من سياسة كليوباترا — وسوف نبسطها بعـد قليل — ويدل على ذلك وعلى روح هذه السياسـة قول كليوباترا .

فتـأملت حـالـتى مليـا وتدبرت أمر صحوى وسكرى
وتبينت أن روما إذا زا لت عن البحر لم يسد فيه غيرى
كنت فى عاصف سللت شراعى منـه فانسلت البـوارج إثرى

(ثانيـا) أن التاريخ لم يذكر أن جيش كليوباترا فر من المعركة البرية بينما سجل المؤلف هذا الفرار فى الرواية تمشيا مع السياسـة التى اختطتها كليوباترا لنفسها ، وفى ذلك يقول أنطونيوس :

أسطولها إلى مراسيه أوى وجيشها ألقى السلاح ونجا

(ثالثـا) أن كليوباترا هى المسئولة أمام التاريخ عن انتحار أنطونيوس بينما يبرئها المؤلف من هـذه التهمة ، ويخلق شخصية خيالية يلقى عليها هذه التبعة ، هى شخصية الطبيب أولمبوس ، ونرى ذلك حيث تتساءل كليوباترا فى لوعة ولهفة :

من نعانى كذبا من قالها لك

وإذ يجيبها أنطونيوس :

« أولمبوس النذل الخؤون »

وحيث نسمع أولمبوس فى الفصل الثانى من الرواية مهدّدا ناقما :

أوروس أنطونيو حسابكما غدا روما الأبيـة لم تنم عن ثارها

وحيث نلمس مكمن الحيلة بين هذه النقمة وذلك الانتقام .

(رابعـا) حاولت كليوباترا تاريخيا أن تتصبى عدوّها الظافر، وأن تغدر حبيبها المخذول، ثم انتحرت عند ما فشلت هذه السياسة، والمؤلف ينزهها عن هذا الإسفاف، ويجعل أوّل لقائها لأوكتافيوس وأوّل اتصاله بها عقب مصرع أنطونيوس ، ثم يجعل من هـذا الاتصال مفاوضات ، ويجعـل فى هـذه المفاوضات خداعا من قيصر وإباء من كليوباترا ، فلا تصبى ولا محاولة إيقاع فى غرام، ثم يجعل انتحارها حرصا على تاج مصر أن يذله العرض فى روما من ناحية، وذلك إذ نقول :

سطت روما عـلى ملـكى ... ...

فرمت الموت لم أجبن ولكن لعـل جـلاله يحمى جـلالى

فـلا تمشى على تاجى ولكن على جسد ببطن الأرض بالى

ووفاء لأنطونيوس من ناحية أخرى وذلك إذ نقول :

أيهـا الذاهب قدآ ن عن الدنيا ذهوبى

أيها الخالص ودّا لبس ودّى بالمشوب

... ...

عن قريب ينطوى القبـــــر علينا عن قريب

صورة تحليلية لأهم أشخاص الرواية

كليو باترا

ما فتئ المؤلف منذ مطلع الرواية الى مقطعها يؤكد جنسية كليو باترا المصرية و إن تحدّرت من نبعة أجنبية، فقد كان الزمن الطويل الذى قضاه أجدادها فى مصر — كما أسلفنا — كافيا لتمصيرها .

وعبث أن نختار من الرواية قطعة دون أخرى لإثبات هذه الجنسية، فالرواية كلها دليل متصل، نسجل منه على سبيل المثل قولها :

أموت كما حييت لعرش مصر وأبذل دونه عرش الجمال

وقولها :

موقف يعجب العلا كنت فيه بنت مصر وكنت ملكة مصر

ثم قولا آخر احتال فيه المؤلف على تبرير هذه الجنسية ، متحاشيا فى هذا التبرير إلا مجرّد التلميح من بعيد لدمها القديم ، وذلك إذ يقول حابى لزينون :

أخى هـذا أتيـنى وخلى ذاك مقدونى

... ...

كلا الخلين ذو جدّ بأرض النيل مدفون

فليسا فى هوى مصر وفى طاعتهـا دونى

وتصوّر الرواية كليوباترا من نواح ثلاث يستحسن أن نبحثها منفصلة : الأولى من حيث هى امرأة، والثانيـة من حيث هى ملكة، والثالثة من حيث هى شخص سياسى :

كليوباترا امرأة

(١) جميـلة :

وأمام جمالها يتمنى زينون رأسين :

يطأطئ رأسا لمجـد النبـو غ ويخفض رأسا لمجد الجمال

ويناجيها أنطونيوس قائلا :

ردّى على هامتى الغار التى سلبت فقبلة منـك تعلوها هى الغار

ويذكرها وهو يودع الدنيا:

لمـا لقيتك فى الجمال وعزه قهرت قواى الظافرات قواك

وفى احتضاره يهتف بها :

كليوباترا زودينى قبـلة من ثناياك العذاب الشهات

وهيلانة تتحدّث عنها :

لم يحـــو شمسين الفلك

وأنو بيس يلقبها :

شعاع المدائن نور القرى

وحبرا ينبهر أمام كفها ...

عجب عينى لا تقـ ـوى على هذا الضياء

هـذه كف إله جاء فى زى النسـاء

ورسول أكتافيوس قيصر يعجب لمولاه كيف :

... لا يابى دعوة الحسن طائعا ... ...

وقد كان يوليوس يقوم ببابه ويمثل أنطونيوس فى العتبات

(ب) قوية الثقة بجمالها :

وبوحى من هذه الثقة تناجى الإسكندرية قائلة :

وأنا المهاة وقد ملأتك قاعا

وتصف عشاقها قائلة :

يموتون بى عشقا ويشقون بالهوى فكم من حياة فى يدى ومماتى

وحينما تفكر فى الانتحار لم يكن يشغلها من الدنيا شاغل إلا أن تحتفظ فى موتها بهـذا الجمال ويبـدو ذلك أولا فى الحـوار بينها وبين أنو بيس :

« ولكن أبى هل يصان الجمال » ؟ « وهل يطفأ اللون » ؟
« وهل يبطل الموت سحر الجفون » ؟

وثانيا عند ماتناجى شبح الموت :

يا موت لا تطفئ بشاشة هيكلى وآحفظ ظواهر لمحتى وجلالى
... ...
حتى أموت كما حييت كأننى بيت الخيال ودمية المثال

ونتحدّث عن الحياة فتقول :

إنى آنتفعت بعبقرى جمالها وتمتعت من عبقرى جمالى

(ج) قوية البيان :

قوية يمثلها حابى حيث يقول :

ليسياس إنك قدسمعت حديثها كالسحر فى الآذان حين يدار
تبدو الخيانة فيه وهى أمانة ويرى الثبات عليه وهو فرار

(د) شاعرة :

وفى ذلك يقول لها أنطونيوس :

وقولى الشعر علويا

ويقول للمغنى إياس :

غننى شعر ملاكى غننى شعر الإله

ولها فى الرواية نشيدان : « أنا أنطونيو وأنطونيو أنا »
و « يا طيب وادى العدم »

(هـ) ولوع بالقراءة :

وفى ذلك يقول زينون :

... ... تنسى ملكها بلقاء الكتب أو تنسى هواها

وقد رأينا أن لها فى قصرها مكتبة .

(و) الأمومة لديها كالغرام — وسوف نتحدّث عنه فى موضعه — عاطفة ثانية إذا كان حب المجد و إباء الضيم فيه عاطفتها الأولى :

وقد آشتهى عيش الذليل لأجلهم فلا المجد يرضى لى ولا النبل يسمح

(ز) عفة الهوى :

وقد تروّع القارئ هذه الحقيقة لأوّل وهلة ، إزاء سلسلة التهم القاسية التى وصمت بها كليوباترا فى الرواية كما يبدو من هذه الأمثلة :

(١) هتفوا لمن شرب الطلا فى تاجهم وأصار عرشهم فراش غرام
(٢) أترضى أن يكون سرير مصر قوائمه الدعارة والبغاء ؟
(٣) قد آجترأت على روما البغى
(٤) صرح أبن قل غدرتْ قل جدّدت بقيصر الثالث دولة الهوى
(٥) ... ... أفنت العمر بالهوى بهيمية اللذات والشهوات

لكن قليلا من التفكير يردّه الى وجه الصواب فاللهمة الثانية قد رماها بها حابى الذى كان يراها عن بعد فى ضوء الاشاعة السائرة، والذى لم يلبث أن نزل عن بعد رأيه فيها حينما عرفها عن كثب، فعاد يعدها « أبر المالكات » و « أشرف الناس إحساسا ووجدانا » و « لا يقيس بها فى الطهر إنسانا » . والتهمة الأولى قد وجهت اليها من شاب كان يشترك وحابى فى نظرته الأولى اليها ، لكنه لم يقترب منها ليرى ما رآه حابى فى النهاية . والتهمة الثالثة موجهة اليها من قائد رومانى غاضب لكرامة بلاده، أى من خصم سياسى موتور . والتهمة الرابعة صاحبها أنطونيوس، رماها بها ظلما فى ساعة يأس، ثم كفر عنها باتحاره ، وسوف نتحدث عن وفائها له بعد قليل . والتهمة الأخيرة إنما تجمع فيها كليوباترا خلاصة ما يقال فيها وفى هواها ثم تدفعه فى قولها :

فدا الغرامى بالرجال وحسنهم ... غرام الغوانى أو هوى الملكات
فليس الغلام البارع الحسن فتنتى ... ولا الرائع الأجلاد والعضلات
... ...
ولكن عشقت العبقرية طفلة ... و فى الغافلات البله من سنواتى

وفى قولها والضمير للحياة :

ووجدتها قد خلدت أبطالها ... فبسطت سلطانى على الأبطال

(ح) وفية لغرامها مخلصة فيه إلا حيث يصطدم هذا الغرام بوطنيتها .

فأما وفاؤها لغرامها وإخلاصها فيـه فموقفها من أنطونيوس جريحا وميتا وبعد أن لم يعـد يرجى منه خير ولا أمل ، وذكرها له وهى مشرفة على الموت حيث تنادى الموت قائلة :

سر بى الى أنطونيو فى نضرتى ورواء جلبابى وزينـة حالى

وحيث تنادى وصيفتيها قائلة :

ألبسـانى حـلة تعـ ـجب أنطونيو سنيه

كل ذلك آيات على هذا الوفاء والاخلاص .

وأما تضحيتها بغرامها لسياستها فعلى الرغم من أقوالهـا « أنا أنطونيو وأنطونيو أنا » و « الحياة الحب والحب الحيـاة » ونحن قرّبنا له — أى للحب — ملك الثرى » و

هو أعطى الحب تاجى قيصر لم لا أعطى الهوى تاجى منا

على الرغم من هذه العاطفة القوية التى أظهرتها كليوباترا دائما فى مواجهة أنطونيوس ، والتى لم يؤيدها الأمر الواقع ، والتى إن دلت على شىء ، فعلى أن كليوباترا كانت ككل امرأة سواها ...

(ط) — يداخلها فى حضرة حبيبها أثر المبالغة وروح الرياء ولعلها تعتذر عن ذلك إذ تقول والضمير للحياة :

بنت الحياة أنا ... ...
عنها تناولت الرياء ورائة وأخذت كل خديعة ومحال

نعود فنقول على الرغم من كل هذا إن غرام كليو باترا — كما سوف نرى حينما نعرض لسياستها — ما تعارض يوما مع هذه السياسة ومع ما كانت تكفل به التاج المصرى من حب ورعاية، إلا خرّ هذا الغرام صريعا .

بقيت نقطة أخيرة تتصل بهذا الهوى ، وتلك أن كليو باترا كانت فى ساعات لهوها ...

(ى) تفنى فى هذا اللهو وتستمتع به وتنسى ما سواه .

وحسبنا فى الاشارة إلى ذلك قولها :

فاطو معى حوادث الـ أمس ولا تجدّد
وامض معى فى لذة الـ يوم ودع هم الغد

وقولها :

لتكونن ليلة آخر الدهر تذكر
لا نبالى إذا صفت بعدها ما يكدّر

على أنها كانت تستظل فى هذا الاستمتاع بظل من الوقار يتبارى مع خلاعة الاغراق فيه ، تلك الخلاعة التى كانت سمة العصر

المترف المستهتر التى عاشت فيه ، والتى نكتفى من إثباتها بالإشارة (أولا) إلى قول القائل :

هلا نظرت إلى الأميرة إنها سكرى تعثر فى خليع عذرها

(ثانيا) إلى اتضاعها فى وليمتها حيث تترك يدها فى يسر لتكون نهبا بشفاه عرّاف صغير .

أما الظل الوقور الذى كانت تستظل به فى هذه الساعات اللاهية والذى يبدو فى قولها :

اجعلوها وليمة وبساطا يتبارى خلاعة ووقارا

فلعلها استمدّته من قبس دينى ما فتئ يتردّد على نفسها بين الحين والحين . وتبدو ...

(ك) مستمسكة بدينها إذ تهتف بأنوبيس فى موضع :

صل من أجلى ولا تنـ ـس صغارى فى صلاتك

وفى موضع آخر :

هذا مقام صلاتى وهيكلى للضراعه
ولى خطايا كثير لا تبرح البال ساعه
فادخل وصل لأجلى فمنك ترجى الشفاعه

وفى موضع ثالث :

أبى دخلت نفسى حيرى الزمام حزينه

وقد تركت المصلى وملء قلبى سكينه
إن الصلاة على شدّ الزمان معينه

وبين هذه العفة والوقار من جانب، وهذه المتعة والخلاعة من جانب آخر جهرت كليوباترا بهذا الاعتراف والضمير للحياة :

ولربما رشدت فسرت برشدها وغوت فأغوتنى وضل ضلالى

ووصفها أنوبيس بأنها كشعاع الضحى :

يخوض الوحل ويغشى الحلى ويأوى الحضيض ويعلو الذرا
... ...
ولكنه طاهر حيث طاف نقى الذيول عفيف الخطا

كليوباترا ملكة

(١) قوية الشخصية :

وأظهر ما تبدو هذه القوّة فى أربع مواضع . (الأوّل) حينما تدخل على زينون بعد أن لعنها وتآمر عليها فلا يكاد يسمع تحيتها حتى يردّها قائلا :

سلام السماوات فى مجدها على ربة التاج ذات الجلال

(الثانى) حيث يقول أوروس :

لولا الوليمة والشراب وحرمة لأميرة الوادى السعيد ودارها

(الثالث) حيث يقول أنطونيوس :

أخرجت أمرى واختيارى من يدى وتركتنى نفسا بغير ملاك

(الرابع) حيث يؤبنها أكتافيوس :

لعبت بأنطونيو و يوليوس حقبة كما جاء بالمسحور أو راح ساحرا

بيد أن هذه القوة كانت تظهر أحيانا كأنها مشوبة بضعف، لكنه ضعف مصطنع ترى فيه المرأة دائما سلاحا من أسلحة قوتها. فهى حينما تنادى أنطونيوس :

مكانك قيصر لا تذهبن ولا تبرح القصر أهلك أسى

إنما تجرّب قوة دلالها، وقد أفلحت فى هذه التجربة ورأينا كيف استنهضت بهذا الدلال من حماسة أنطونيوس، وكذلك عند ما تقول لأوكتافيوس :

فخذه من يد الموت ومن عاجزة تبكى

فقد كان ذلك منها تهكما بتهكم، وقد رأينا كيف وقفت بعد ذلك وقفتها فى إبائها وكبريائها الأعزل، فاضطرت القيصر المنتصر أن ينتقل فى خطابها من سخرية إلى احترام.

وفى ذلك تقول هى :

فإن تك بى خشية فى النساء فلى جرأة الملكات الكبر

ويقول أكتافيوس :

قد أبطلت كيدى على ضعفها ولم تزل تسخر بالكائد

(ب) مصلحة :

وفى ذلك تناجى الاسكندرية قائلة :

وشيت برك جدولا وخميلة وكسوت بحرك عدّة وشراعا
وأنا اللباة وقد ملأتك غابة وأنا المهاة وقد ملأتك قاعا
قد خفت من بعدى عليك ممالكا يطلقن فيك الفاتحين سباعا

(ج) فخور :

ويبدو هذا الفخر على أشدّه حينما تجعل نفسها « ضرة روما » إذ تقول :

اليوم تعلم روما أن ضرتها تقلد الغار من تهوى وتختار

وحينما تقول لحابى :

دع الذود عن مصر لى إننى أنا السيف والآخرون العصا

وحينما تقول :

وقد علم البرية أن تاجى نمته الشمس والأسر العوالى

وحينما تخاطب الاسكندرية قائلة :

« وأنا اللباة وقد ملأتك غابة »

وحينما تسأل العراف :

أحضيض يومى الآ خر قل لى أم سماء
خاتم الأيام أو لى باهتمام العظماء

(د) أبية :

وآية ذلك قولها لأنوبيس :

أبى لا العزل خفت ولا المنايا ولكن أن يسيروا بى سبيا

وقولها فى وداع حياتها :

أأدخل فى ثياب الذل روما ... ...
... ...
إذن غير الملوك أبى وجدى وغير طرازهم عمى وخالى

وقولها فى وداع صغارها :

وقد أشتهى عيش الذليل لأجلهم فلا المجد يرضى لى ولا النبل يسمح

وفى تأبين أكتافيوس لها :

ترفعت عن قيدى ومت عزيزة

(هـ) تتألف خصومها :

واحتيالها فى اجتذاب حابى اليها عن سبيل حبه لهيلانة خير دليل .

(و) عطوف على أتباعها :

تقول لوصيفتها :

أنت لى خادم ولكن كأنا ... فى الملمات أهل قربى وصهر

وتقول لها وصيفتها :

يا رب ذنب ... ... يتعب العذر فيه مهدت عذرى

وقد أكسبها هذا العطف تفانيا فى حبها من أولئك الأتباع .

فانظر الى هيلانة إذ تقول :

إن التى شب فى نعمائها ... ونبهت لى فى سلطانها شانا

إن لم أمت دونها أو لم أمت معها ... فما جزيت عن الاحسان إحسانا

و إذ تقول على جثتها :

ليت الطبيب الذى داوى فأخرجنى ... الى الحياة على الدنيا به طلعا

و إذ يصل هذا التفانى الى حدّ التضحية بالحياة ، و إذ يتجلى الحزن الشامل على القصر ومن فيه فى الساعة التى أفل فيها نجم كليوباترا وأشرفت على مفارقة الحياة ، أنظر الى كل هذا تجد أن أولئك الأتباع وجدوا فى ظل كليوباترا العطف والرفق والاحسان .

(ز) غفور :

ويبدو ذلك فى قولها لحابى :

فمثلك تاب ومثلى عفا

(ح) جليـــد :

ونرى أثر هذا الجلد فى قولها :

ياويح صحبي بعد طول سرورهم قعـدوا الى أحزانهـم يبكونا
جيئى بهم ياشرميون لينظروا جلدى فيهدأ بعض مايجدونا

(ط) تكره التملق :

وفى ذلك تقول لحبرا :

خلـنى من زخرف المـد ح ومن زور الثنـاء

ســـياسة كليو باترا

تقول كليو باترا لأوروس :

الحـرب فنـك أورو س والســياسة فـنى

فهل هذا صحيح ؟

لقد كانت كليو باترا بعيدة النظر حينما عتبت على أنطونيوس عقب انتصاره فى اليوم الأول من يومى المعركة البرية على أسوار الاسكندرية أن ترك خصمه من غير أن يضربه الضربة القاضية بعد أن اقتحم عليه مضاربه ...

تركتهم لغد ؟ هذى مجازفة غد غيوب وأسرار وأقـدار

وقد أثبتت هزيمة أنطونيوس فى اليوم التالى بعد هذا النظر .

وكانت كليوباترا بعيدة النظر كذلك حينما استشفت من خلال ذلك العرض المعسول الذى عرضه عليها أكتافيوس :

ولها الوادى وما يحـ ـمل ملكا ورعيه
وبنوها يرثون الملـ ـك من روما الوصيه
واذا حلت بروما وجدت روما حفيه

شبح الحيلة والخداع ، فكادت له كيدا اضطره أن يقف أمام جثتها موقف المنهزم يقول :

قد أبطلت كيدى على ضعفها ... ...
فى الجسد الحى تمنيتها لم أبغها فى الجسد البائد

هذا من ناحية أخرى فقد اختطت كليوباترا لنفسها سياسة خاصة فى هذه الرواية ، وقد ظلت أمينة على تنفيذها حتى النهاية ، وقد فشلت فى هذه السياسة فشلا أفقدها حبها وتاجها وحياتها ، وأفقد مصر ما كان لها من شبه حرية واستقلال .

ونعرض الآن هذه السياسة ثم نتناولها بالبحث لنرى مواطن ضعفها وكيف انتهت الى هذا المصير .

وكانت كليوباترا أسيرة عواطف ثلاث :

(الأولى) حبها لمصر وحرصها على مستقبل تاجها . وقد رأينا أن الرواية ملأى بدلائل هذا الحب والحرص حينما تكلمنا عن جنسية كليوباترا .

(الثانية) حبها لأنطونيوس . ومن العبث أن نستشهد على هذا الحب بنجواها الغرامية المتصلة وحدها كلما جمع المجال بينها وبين أنطونيوس ، فلقد تتهم هذه النجوى بشيء من المبالغة والرياء ، وخير أن نقصر هذا الاستشهاد على حديثها عنه فى غيبته ، إذ تقول :

علم الله قد خذلت حبيبي

وإذ تقول فى موقف آخر :

هو أنطونيوس ذخرى وطريفى وتليدى

وعلى الوفاء له بعد موته ، وقد أسلفنا عليه الدليل ، ومهما يكن من انقاد هذه العاطفة فى قلبها فقد كانت لديها كما قلنا عاطفة ثانوية ، كلما تعارضت مع حبها لمصر ، ففى سبيل وطنها كانت مستعدّة للتضحية بكل شيء ، وكانت تعتقد حقيقة أن :

المجد لا يسأل عن صاحبة ولا ولد

وكانت مخلصة حينما استنهضت حماسة أنطونيوس بهذه الكلمة الجامعة :

عد ظافرا أو لا تعد

وآية استعدادها للتضحية بغرامها فى سبيل سياسة بلادها قولها عقب فرارها من أكتيوم :

علم الله قد خذلت حبيبى ... وأبا صبيتى وعونى وذخرى
والذى ضيع العروش وضحى ... فى سبيلى بألف قطر وقطر
موقف يعجب العلا كنت فيه ... بنت مصر وكنت ملكة مصر

(الثالثة) بغضها لروما وإشفاقها من طغيان سلطانها المكين .

ويبدو هذا البغض فى عدّة مواضع . منها قولها :

لا تسيروا على ولائم روما ... سرفا فى الفسوق واستهتارا

ومنها قول أحد القوّاد الرومان لزميل له :

أتسمع ما تقول عدو روما ؟

وقولها :

دعوا روما ولا تجروا لها ذكرا

وقولها :

حبرا أعندك سحر ... يشل طاغوت روما؟
ويجعل الناس فيها ... حجارة و رسوما

وقولها فى موقف مفاضلة بين ألوان الشراب :

دنان مصر لا دنان الروم

ثم شعور الناس جميعا — حتى خصومها — بذلك البغض، وفى ذلك يقول حابى لزينون قبل أن ينزل عن رأيه فيها :

ولم يبق على الود لروما غير زينون

وإشباعا لهذه العواطف جميعا رسمت كليوباترا لنفسها ثلاث غايات :

(الأولى) أن تستخلص الشرق لنفسها مستقلا عن كل نفوذ .

(الثانية) أن تضعف قوى روما ما آستطاعت مع المحافظة على قواها هى .

(الثالثة) أن تعكس الآية السياسية الموجودة يومئذ، فتسود روما من خلال سيادة قيصر ضعيف تضمن أن يخضع لفتنة جمالها دائما، كما تضمن أن يخشى قوة بأسها ثانيا ، وكل هذه الشروط كانت تجتمع فى أنطونيوس . وتحمل كليوباترا غايتها الأولى والثالثة فى قولها لأنطونيوس :

أنت لروما فى غد وقيصرون بعد غد

والشرق سلطانى الذى إكليله لى انعقد

ثم تبسط غايتها الثالثة إذ تقول :

قلت روما تصدّعت فترى شط ـرا من القـوم فى عداوة شطر

... ...

وتبينت أن روما إذا زا لت عن البحر لم يسد فيه غيرى

والوسيلة التى ظنتها كليوباترا كفيلة بتحقيق هذه الغايات ، أن تقف من القيصرين المتحاربين موقف الحياد ، فقد كانت تؤمن بتكافؤ قواهما الحربية ، لأنهما « تقاسما الفلك والجيش » وبات كلاهما :

... ... شط ـرا من القوم فى عداوة شـطر

وقد أثبت تداول النصر بينهما قبل المعركة الفاصلة صدق هذا اليقين . وقدّرت كليوباترا أن حيادها هذا يكفل لهـا الاحتفاظ بقواها فى البر والبحر ، بينما ينهك القتال قوى القيصرين — المنتصر منهما والمخذول — حتى إذا قرت الحرب بينهما ظهرت بجيشها وأسـطولها ، لتجهز على أكتافيوس — إذا ظفر — وهو متعب منهوك ، ولتحيي أنطونيوس — إذا كان هو الظافر — تحية القوى للضعيف ، لا تحية التابع للمتبوع . لكن الحياد الصريح كان معناه المحتوم أن تفقد أنطونيوس ، وأن تفقد كل أمل فى هواه ، وأن ينهار بفقدان هذا الأمل صرح أمانيها جميعا ، فاصطنعت كليوباترا

لنفسها حيادا مقنعا تتظاهر فيه بالقيام بنصيبها من أعباء الحرب الى جانب أنطونيوس ، حتى إذا نشبت المعركة فرت بجيشها أو أسطولها ، تاركة لفرار أنطونيوس القوى مهمة التماس الاعذار لضعفها وفرارها من حومة القتال ، ناطقا على لسانه :

فقلت انسحبت ضعفا وقال الناس بل غدرا
ولو كان لهم قلب كقلبي التمسوا العذرا

ومهمة أخرى هى إلقاء تبعة الغدر والخيانة على من يشاء من قوادها :

فياقائد الأسطول هل من مكيدة تدبرلى خلف الشراع وماأدرى ؟

وما من شك أنها مهمات يسيرة ، إزاء مهمة الاعتذار لخيانتها السافرة لو أنها وقفت منه موقف الحياد الصريح ! وما من شك كذلك أن هـذه المهمات قد أداها غرام أنطونيوس بنجاح فقد عفى عن ضعف حبيبته مرتين ومات راضيا عنها كل الرضاء .

ونستطيع استخلاص هـذه الخطة التى اتخذتها كليوباترا من أربعة مواضيع :

(الأول) فى موقف كليوباترا من حاشيتها بعد وقعة أكتيوم ، تبرر فرارها فى هذه الأبيات :

قلت روما تصدّعت فترى شطـ ـرا من القوم فى عداوة شطر

بطلاها تقاسما الفلك والجيـ ـش وشبا الوغى يجر وبر
فتأملت حالتيّ مليا وتدبرت أمر صحوى وسكرى
وتبينت أن روما إذا زا لت عن البحر لم يسد فيه غيرى
كنت فى عاصف سللت شراعى منه فانسلت البوارج إثرى
خلصت من رحى القتال ومما يلحق السفن من دمار وأسر

(الثانى) فى قول أنطونيوس :

أسطولها إلى مراسيه أوى وجيشها ألقى السلاح ونجا

ولقد يلقى قول كليو باترا فى استقبال أنطونيوس على أثر عودته ظافرا فى اليوم الأول من يومى المعركة البرية :

هو والله نشيدى والمغنون جنودى
والمخاريق التى تخـ ـفق من بعد بنودى

لقد يلقى هذا القول ظلا من الشك على مسايرة خطة الانسحاب من المعركة لسياق الرواية ، يعززه أن أنطونيوس لم يأخذ عليها فرارها من هذه المعركة كما أخذ عليها فرارها من أكتيوم ، لكن هذا الظل المريب يتضاءل ويفنى حينما نعلم أولا أن كليو باترا لم تشترك فى هذه المعركة بتاتا ، فقد « آلى وأقسم » أنطونيوس :

... ... لا يرى فى قصرها حتى يقوم مجده المنهار

وظل فى حنقه وغضبه منها «بأقرب ثكنة» من الأسكندرية يدعو من الرومان — وحدهم — من يختار :

و يعدّ أهبته ليـوم حاسم فى البر يغسل عنه فيه العار

وحينما نتمشى ثانيا مع قول كليو باترا قليلا، فنسمعها فى فرحها بعودته تقول :

ولديهـــا فارس ملـ ـتثم شاكى الحـــديد

هو أنطونيوس ذخرى وطـــريفى وتليـدى

فهى لم تفرق بين جنود أنطونيوس وأعلامه، و بين جنودها هى وأعلامها ، ولكن ذكرت نوعا واحدا من الجنود والأعلام والأناشيد، وقالت هم جنودى وأعلامى وأناشيدى، لأنها فى غرورها الفخور وفى ثقتها بجمالها وحب أنطونيوس لها وحبها لأنطونيوس، كانت تعتقد ما قالت « أنا أنطونيو وأنطونيو أنا » ، وترى على هذا أن كل ماله إنما هو ملك لها، وكان أنطونيوس بدوره يتناسى فى انتصاره عتبه الأول، و يتناسى فى غرامه أناشيد روما وأعلامها، و يتخذ أناشيد مصر وأعلامها، و يترك أسطوله « يعب تحت هذه الأعلام » ، وجيشه يتغنى بهـذه الأناشيد، وفاء لها بمـا أخذه لها على نفسه، أنه « مصرى » وأنه « تابعها الوفى » وأنه ما فى سوى رضاها له مضى .

(الثالث) قولها لأنو بيس :

وجيش الحليف وجيش العدوّ بظهر المدينة شبا الوغى

أما جيشها هى فسياستها تعلم أين كان !

(الرابع) قولها لأنو بيس كذلك :

أبى أعلمت أن الجيش ولى وأن بوارجى أبت المضيا ؟

فكليو باترا هنا تشكو من أن بوارجها أبت المضى، لكن متى حدث هذا الإباء ؟ هل كان ذلك فى معركة أكتيوم؟ طبعا لا... لأنه لو كان ذلك كذلك لما كان هناك سبيل لشكاة كليو باترا من أمر هى صاحبة الرأى فيه، ولما كان هناك سبيل للتعبير عن فرار الأسطول يومئذ بأنه « إباء » أى تمرّد ، وهى الآمرة بالفرار وأسطولها لم يعد ان سمع وأطاع ، ولما كانت هناك فائدة فى إخبار أنو بيس بنبأ قد عرفه منذ حين ... إذن لابد أن هذه البوارج قد أبت المضى الى الحرب بعد هزيمة أنطونيوس الأخيرة ، وقد يبدو — وإن كان ذلك فى شىء من الغموض — أن كليو باترا تنفيذا لما بسطنا من خطتها أرادت أن تضرب أكتافيوس عقب انتصاره كما قدّرت ، فأهابت بأسطولها أن يمضى فأبى هذا المضى، وأهابت بجيشها أن يمضى فولى الأدبار ... اعتاد كلاهما لذة الدعة وراحة الفرار، ومن هذه العادة جنت كليو باترا ماغرست فيهما من بذور

الضعف والخور، وتحطمت خطتها وسياستها على صخرة عاتية وقفت لديها تعض بنانها ندما وتقول :

أيها العين أبصرى إنما كنت فى حلم

مواطن الضعف فى هذه السياسة

(أولا) أخذ أنوبيس على هذه السياسة بصفة عامة أن كليوباترا كان يجب أن تخلص فى عون أنطونيوس، فيكون الأمل فى الظفر أقوى، وذلك حيث يقول :

تركتم أنطونيو س وحده يلقى العدا
من أجلكم سل الحسا م و إلى الحرب مشى
ما كان ضركم لو التـ ـفتم على اللوا

لكن حسن الظن فى كليوباترا قد يستطيع الاعتذار لها بأنها كانت تريد الى جانبها قيصرا ضعيفا يمكن أن يرث عنه القيصرية ولدها قيصرون، لا قيصرا قويا قد تفقد سلطانها عليه إذا تعرض غرامه للذبول .

(ثانيا) قدرت كليوباترا أن يظل أنطونيوس فى المعركة بعد فرارها فخانها التقدير، وفر فى أثرها أنطونيوس :

لم تأت حتى جاء فى آثارها للحب أجنحة بهن يطار

(ثالثا) لم تقدّر ما يحدثه فرارها من الضعف المعنوى فى جيش أنطونيوس، وآية هذا الضعف قول أوروس لمولاه :

وخلفت فى عسكر كالنعاج كثير الثغاء قليل الغنا
فمن يائس مات قبل القتال ومن خائن فرّ قبل اللقا

(رابعا) صراحتها الطائشة فى إعلان بغضها لروما أمام الرومان، واضطرارها أنطونيوس أن يظهر بهذا المظهر كذلك أمام قواده، مما أحنق أولئك القوّاد وجعلهم يقولون :

سنلبث ساعة نحتال حتى إذا سلت عقولهم انسللنا
فما المتدله السكير أهلا لتنصره السيوف إذا استللنا

ونرى أثر هذا الحنق حينما يقول أنطونيوس :

جنود أكتاف أدركونى يا ليتنى مت قبل هذا

فيجيبه جندى رومانى :

لا بل جنودك لكن خانوك حبا لروما

(خامسا) عدم اتعاظها بضعف سياستها بعد معركة أكتيوم، وتكرار الانسحاب وتكرار الهزائم.

(سادسا) اعتمادها على جيش وأسطول علمتهما الهرب من ساحة القتال، وقصارى ما نستطيع أن نقول فى سياسة كليوباترا

إن عينها كانت ترى ما وراء الأفق وتعمى عما تحت أنفها من عثرات، وإن هذه السياسة ليست المسئول الوحيد عن هذه الكارثة التى انتهت بها حياة كليوباترا ولكن هناك مسئولا آخر هو الضعف النفسى الذى تحكم يومئذ فى أنطونيوس .

* * *

ولعل خير إطار تحلى به هذه الصورة الجامعة المتسقة الألوان لحياة هذه الملكة هو تأبين أنوبيس لها :

يفتى رجوتك للضحية والفدا ... فوجدت عندك فوق ما أتاراجى
إن تصبحى جسدا فنفسك حرة ... وعلاك سالمة وعرضك ناجى
سيقول بعدك كل جيل منصف ... ذهبت ولكن فى سبيل التاج

أنطـــونيـــوس

رسم المؤلف صورتين لأنطونيوس الجندى فى هذه الرواية :

(الأولى) صورته قبـل أن يتصـل بكليوباترا أيام أن كان يضحى بالهوى فى سبيل المجد .

(الثانية) صورة أنطونيوس بعد أن عرف كليوباترا وأصبح يضحى بالمجد فى سبيل الهوى .

ونرى الصورة الأولى حينما يذكر أنطونيوس — وهو مشرف على الموت — أيام صباه فيقول :

وأيام يدعونى الهوى فأجيبه ... وينفخ فى البوق المنادى فانبرى
فتنت الغوانى برهة وفتننى ... ولكننى عن سؤدد لم أقصر
فهمة قلبى فى شراب وصبوة ... وهمة نفسى فى علاء ومفخر
أروس تواقفنا على كل غمرة ... وكل مجال ثائر النقع أكدر
وفى مهرجان الفاتحين وعرسهم ... وتحت لواء أو على عود منبر

فنراه من خلال هذه الصورة ، شجاعا ، ظافرا ، خطيبا يشبع عاطفته ولكن إلى الحدّ الذى لا يقف به فى سبيل المجد عن غاية ،

ونرى الصورة الثانية حيث يفرّ أنطونيوس من معركة أكتيوم وفى ذلك يقول حابى :

لم تأت حتى جاء فى آثارها ... للحب أجنحة بهنّ يطار

و إذ يخرج به الهوى من معركة لو استمرّ فيها لكتب له النصر الأخير، وذلك إذ يقول لكليوباترا عقب انتصاره المؤقت :

ومالت الشمس أوكادت فراجعنى ... شوق إليك عديم الدار سوار
حتى رجعت ولو أنى طردتهم ... لبات أكتاف عندى وانقضى الثار

وإذ ينسى بلاده ووطنيته وجنسيته فى حب كليو باترا فتستطيع أن تقول :

... ... دعـــوا روما ولا تجـروا لهـا ذكرا
فما أنطونيـو منهـا وإن كان ابنهـا البكرا
ولكن تحت أعـلامى يقـود البر والبـحرا

فيسأله قائد من قوّاده :

أحـق مارك أنطونيو س من روميـة تـبرا؟

فيجيبه :

أجل أتبـع مـولاتى ولا أعصى لهـا أمرا

وإذ تستطيع أن تقول :

أنطونيو ما أنت رومانى ألم تقل إنك لى جندى

فيجيبها :

أجل وزدت أننى مصرى وأننى تابعـــك الـوفى
ما فى سوى رضاك لى مضى

وإذ يقول هو والخطاب لروما :

إن الذى بالأمس زنت جبينه بالغار عقك جهده وعصاك

وإذ يقول له قائد من قوّاده :

ألا إنـه ليـــل له ماوراءه غرامك حى فيه والمجد ميت

وآخر :

فما المتدله السكير أهلا لتنصره السيوف ... ...

وثالث :

حياته فى يديه أم فى يدى كليوباترا

وإذ يناجى هو «إلهته» كليوباترا :

أخرجت أمرى واختيارى من يدى وتركتنى نفسا بغير ملاك

وإذ يفقد مزية الجندى الباسل فى ساحة الوغى، تلك المزية التى أثبتها لنفسه حين سألته كليوباترا :

... ... أسالم أنت لا أسر ولا عار؟

فأجاب :

أسر ؟ وهمت كليوباترا ... ...

لو قلت قتل لكان القول أشبه بى كأس المنايا على الأبطال دوار

وتلك هى مزية الثبات التى يفقدها أنطونيوس بفراره من أكتيوم ثم فراره من المعركة البرية الثانية إذ يقول :

جللت نفسى بعار يبقى بقاء الزمان
لما حملت جوادى على الفرار ازدرانى
وضج منى سيفى وضج منى سنانى

وودت الأرض تحتى لو طهرت من عيانى
أنا الذى كان أمضى من الحديد جنانى
كان الملوك عبيدى فصرت عبد الحسان

على أن المؤلف ترك له ما سوى هذا من مزايا الجندية ، فجعله على لسان كليو باترا :

جيشا بمفرده فى الروع جرار

وجعله على لسان حبرا « إله الحرب » .

وجعله على لسان أوروس « إله الوغى » حيث يقول :

رأيتك والحرب تبلو الكماة فأشهد كنت إله الوغى
وقد كان سيفك غول السيوف وكانت قناتك غول القنا
وكنت إذا الموت أفضى إليك تحدّيته فانثنى القهقرى

وجعله على لسان جندى رومانى :

... ... هيكلا عز فى الرجال ضريبا
... ... خير من هز رمحا أو نضا صارما ولاقى الحروبا

وجعله على لسان كليو باترا :

محور الأرض وميزان الشعوب

وجعله على لسان أكتافيوس « سيفا باترا لروما » :
ضمن أمثلة من هذا النوع تناثرت فى الرواية .

لكن هـذه المزايا الباقية لم تغن عنه شيئا إزاء ضعفه النفسى الذى أفاضه عليـه اندفاعه الأعمى فى هواه ، وجعـله من حيث طاعته لكليو باترا « كهمج الاسكندرية » .

ثم صـور المؤلف صورة أخرى لأنطونيوس من حيث هو رجل فنراه من خلال هذه الصورة : غفورا يتجلى غفرانه لكليو باترا مرة بعد أخرى ، ويبدو ذلك فى قولها له :

وكم حقدت ثم أصبحـ ـت كأن لم تحقد

رحيم القلب ، بشوش الوجه :
وتبدو رحمته وبشاشته فى قول كليو باترا :

ليس العبوس سـنة لوجهك الطلق الندى
ولست من يغضب فى ليـل الشراب والدد
ولست للكأس على شاربهـا بالمفسـد
قلبك كنز الحب والـ ـرحمـة والتـودد

أكتافيوس

يظهر أكتافيوس فى الرواية قائدا عظيما قويا ويبدو ذلك فى انتصاره وفى قوله «وما أنا إلا سيف رومة» وفى قول كليو باترا :

إن اسطعت على ما لك من بطش ومن فتك
وما حولك من خيل وما تحتك من فلك

وسياسيا :

ويبدو ذلك فى المعاهدة التى أراد أن يخدع بها كليو باترا ليتخذها شارة فى موكب انتصاره .

أنوبيس

يتمثل فى الرواية مصريا شديد الغيرة على مصريته .

ويتجلى ذلك إذ يقول :

إيزيس كيف أصلى على ابن يوليوس قيصر
أبوه عال ولكن فرعون أعلى وأكبر

وإذ يوحى إلى كليو باترا فكرة الانتحار عطفا عليها من حيث هى ملكة مصرية وحرصا على كرامة التاج المصرى، ويتضح ذلك فى حواره حول أفاعيه وإذ يختم هذا الحوار قائلا :

يمينا بإيزيس أحملهن إليك ولو فى سلال الخضر
إذا بات فى خطر تاج مصر سبقت إليك بهنّ الخطر

وهو من هذه الناحية موزع بين عاطفتين :

(الأولى) عطفه على كليوباترا .

(الثانية) بغضه لروما .

ويتجلى هذا البغض فى قوله :

حابى أحيط القصر بالذئاب وبى من السخط عليهم مابى

لكنه لم يكن ينسى فى هذا البغض أن آمال مصر معقودة على انتصار أنطونيوس . وقد رأينا أثر ذلك فى سياسة كليوباترا .

* * *

كَمُلَ طبع رواية "مصرع كليوباترا" بمطبعة دار الكتب المصرية
فى يوم الخميس غرة جمادى الثانية سنة ١٣٦٥ (٢ مايو سنة ١٩٤٦) ٤٦

محمد نديم
مدير المطبعة بدار الكتب
المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ٦٥/١٩٤٥/٧٠٠٠)

١٩٥٧/٧٤٦

[تطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد على بمصر]

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

THE ABU SHADI
MEMORIAL LIBRARY

PRESENTED BY

CHARLES A. DANA, JR. '37
H. H. PRINCE SADRUDDIN AGA KHAN
COUNCIL ON ISLAMIC AFFAIRS

Princeton University Library
32101 074332691